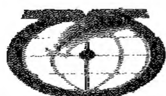
د. علي فهمي خشيم

الفلسفة والسلطة

ومقالات أخرى



الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان

AD-DAR AL-JAMAHIRIYA

الفلسفة والسلطة

ومقالات أخرى

علي فهمي خشيم

الفلسفة والسلطة

ومقالات أخرى

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

الفلسفة والسلطة

ومقالات أخرى

علي فهمي خشيم

- الطبعة الأولى: الفاتح 1430 ميلادية (1999)

- كميـة الطبـع: 3000 نسخة

- رقم الإيداع المحلي : 4847 ـ 2000 دار الكتب الوطنية بنغازي

- رقم الإيداع الـدولي: ردمك ISBN 9959-0-0085-0

الـدار الجمـاهيـريـة للنشـر والتـوزيـع والإعـلان

مصراتة: هاتف: 614658 ـ 051 ـ 606086 ـ 021

ص.ب. 1459 ـ بريـد مصور 619410 ـ 051

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

ملاحظة

هذه أربع مقالات تناثرت بين ندوة من الندوات أو مطبوعة من المطبوعات، ارتأى الناشر أن يضمها بين دفتي كتاب واحد. وقد حاول كاتبها أن يجيب عن أسئلة أثيرت في أربع مناسبات، وليس من المهم أن يكون وُفِّق في العثور على إجابة صائبة أو أخفق في ما قدّم من إجابات. بل المهم أن تثير في ذهن القارىء أسئلة أخرى، قد تكون أعمق وأشمل وأهم، وأن يحاول هو الإجابة عما في ذهنه من تساؤلات، إن لم يلقها في ما يلي من الصفحات.

الفلسفة والسُلطة(*)

في كتابه «حيوات وآراء مشاهير الفلاسفة» يفرق أديوجين اللائرتي تفرقة لطيفة بين (الحكيم) Sophos و(محب المحكمة) Philosophos ويروي أن فيثاغورس كان أول من نعت نفسه بـ(فيلوسوفوس) هذه لأنه ـ كما قال ـ ليس حكيماً (سوفوس) على الإطلاق، لأن الحكيم هو الله وحده، بل هو محب للحكمة عاشق لها ليس غير (فيلوسوفوس). وبمرور الزمان تطورت دلالة الـ(فيلوسوفوس) حتى ترجمها العرب إلى (الحكيم) بينما اشتقت من (سوفوس) كلمة «سوفستيس» Sophostes وعُرِّبت (سفسطائي) تدل في الذهن على المجادل المزوَّد بالمعرفة المنطقية يستعملها ليغلب خصومه بمنطق يقوم

(*) ندوة (المعرفة والسلطة. . في المجتمع العربي).
معهد الإنماء العربي ـ جامعة صنعاء/ صنعاء 1987إفرنجي.

على المغالطة ومحاولة إيقاعِ الخصم في الشَّرَك بما لا يتصل بـ(الحكمة) من قريب ولا بعيد.

وحسناً فعل فيثاغورس الطيب المتواضع، ومؤسفٌ ألا يفرق من جاء بعده بين (محب الحكمة) و(الحكيم) وشتان بين النعتين، فإن كان من وصف آخر لهذا المشتغل بالحكمة يناسب عنوان هذا البحث فهو: (محب السلطة). وقد ينال التطور هذا النعت أيضاً فيكون: (المتسلِّط).. لا ريب.

في عالمنا المعاصر تكاد العلوم كلها تقريباً تحددت معالمها، ووضح ميدان نشاطها، واستبانت أسسها.. ما عدا الفلسفة. فهي لا تزال كتلة غائمة من الأفكار والتصورات، ممزوجة بفروع شتى من المعارف، تخبط في كل ميدان وتضرب فيه بسهم. ذلك راجعٌ ـ فيما نحسب ـ إلى أن الفلسفة ظلت تحسب نفسها (أم العلوم) لا بد أن ترعاها وتتابعها بالملاحظة والعناية، بالرغم من نمو أولادها وشبِّهم عن الطوق. هذا في التصور الخاص الضيق المتعصب للحكمة.

وقد يعود الأمر إلى أن الفلسفة (أو الحكمة) متصلةٌ دائماً بحياة الإنسان فرداً أو جماعة، بتفكيره وأحلامه وتطلعاته، والإنسان إنسانٌ أولاً وأخيراً، مهما كان نشاطه ومهما كان مجال حركته في الحياة، فهو (يفكر) رغم أنفه، وهو لا يمكنه العيش بمعزل عن رفاقه من البشر في المجتمع الذي يعيش فيه. وهذا

المجتمع لا بد له من تنظيم، مهما كانت صورة هذا التنظيم، ولا بد لهذا التنظيم من (سلطة) بطريقة أو بأخرى. ولعل هذا ما يجعل الفلسفة ذات صلة هي أمتن الصلات بـ(السلطة) باعتبار المشتغلين بها (متخصصين) في خاصية الإنسان الأولى: التفكير.

نعم. الفيلسوف في الحقيقة هو من يفرغ جهده ويتفرغ تماماً لعملية «التفكير» وحدها، ولا يهمنا الآن كيف يفكر ولا في ما يفكر، فهو «متخصص» بالمعنى الدقيق للكلمة. . تماماً كما يتخصص المهندس أو الطبيب أو الفيزيائي أو ما تشاء من تخصصات. وهذا ما يجعله ذا شأن بالنسبة للمجتمع لأنه ـ في كثير من الأحيان ـ يزعم أنه يفكر للمجتمع ذاته، أعني أنه يفكر نيابة عن الآخرين. . فيريحهم من العناء ويذل الجهد في أمر يحتاج إلى جهد هائل، ذهنياً على الأقل، لأن معناه: التفكير للجميع. وخلاصة هذا التفكير تتبلور ـ عادة ـ في بناء تصوري يرى صاحبه أنه متكامل هو ما نسميه (المذهب) يبدأه فردٌ ويتبعه آخرون، وقد يزدادون عدداً، فيسيطر هذا المذهب، الذي قد يُسَمَّى (فلسفة) أيضاً، ويسير المجتمع في سياسته بحسب بنائه. وقد يُخْفِق في تحقيق الغاية، فينزوي كتاباً بذل فيه صاحبُه عصارة عمره، على الرف، جزءاً من (تاريخ الفلسفة) يحكي قصة طموح إنسان ما، فرد ما، ورغبته في تحقيق ما يراه خيراً

لمجتمعه عن طريق امتلاك السلطة لتحقيقه. . إن لم يكن المالك هو فأتباعه على الأقل.

إن تاريخ الفكر السياسي (أو الفلسفة السياسية) ـ وقد تحدد الآن وصار فرعاً من الفلسفة العامة ـ يعج في كل صفحة من صفحاته بهذا الذي قدمناه:

كيف يمتلك الفيلسوف السلطة ليحقق آراءه في سياسة المجتمع والناس وجوانب الحياة المختلفة؟ وإني لأتحدث عن (الفيلسوف) بصيغة المفرد. هذه هي الحقيقة، إذ ليس ثمة شيء يسمى فلسفة جماعية على الإطلاق. هذه «الفلسفة الجماعية» تأتي اتباعاً لفرد، قد يكون تعبيراً عن رغبة جماعية غير واضحة المعالم فيحددها هو ويؤطِّرها وينظمها في سلك واحد من متتابعات اجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وخلقية. . . الخ. من هنا فإن إدراك صلة الفلسفة بالسلطة لا يتأتّى إلا بالنظر إلى تاريخ (الفلاسفة). . وليس تاريخ الفلسفة ذاتها. ونحن عندما نتحدث عن فلسفة السياسة ذات الصلة بسياسة الفلسفة، فإننا نخرج من دائرة اهتمامنا الجانب الغيبي من الفلسفة، أعني «الميتافيزيقا» أو ما ترجم بـ(ما وراء الطبيعة) وهو موضوع قد نتعرض له في حينه. من هنا فإن الفلسفة في هذا المقام تعني الاهتمام ببناء مجتمع على نسقٍ خاص يدور في ذهن صاحبه، وكل من اهتم بهذا البناء يمكن أن نعتبره فيلسوفاً سياسياً. وليس

بالضرورة أن يسبق امتلاكه للسلطة ـ إن امتلكها ـ إعلانه عن فلسفته هذه؛ فهو قد يحققها بعد وصوله إلى السلطة، كما أنه ليس بالضرورة أن ينجح في ما يريده، وصولاً أو غايةً، ولكن تظل هذه «الفلسفات» ـ بالرغم من كل شيء ـ علامات بارزة في طريق الإنسانية لا يمكن إغفال أثرها، سلباً أو إيجاباً، في هذا التاريخ.

منذ البداية.. في الشرق:

على هذا الأساس يمكن اعتبار حمورابي (حوالي 1750ق.م) في بابل مثلاً للقاء الفلسفة والسلطة، فإن (شريعته) تمثل في الواقع فلسفته هو في سياسة المجتمع عن طريق القانون الذي وضعه، وهو قانون شامل منظم للعلاقات الخاصة والعامة يحدد واجبات كل فرد وحدوده في صلته مع الآخرين. وقد يقال إن حمورابي جمع مواد شريعته من الأعراف السابقة في بابل ومهمته تنحصر في أنه بوّبها وأصدرها لكي تسلك الجماعة بحسب ما جاء فيها. وقد يكون هذا صحيحاً بقدر ما. لكن الواقع أنه ما من فيلسوف، أو مفكر، إلا كان خلاصة ما سبقه تأثر به سلباً أو إيجاباً، واستفاد من تجارب المجتمع الذي عاش فيه. ولا يمكن أن يقبل منطقياً أن يضمِّن حمورابي في شريعته ما لم يوافقه في مذهبه من الأعراف، ولا بد أنه «تخير» ما اتفق مع فكره هو، أو النظام الذي رآه مناسباً لمجتمعه، شأن أي

فيلسوف. ونحن لا نعرف شيئاً اسمه (شريعة بابل) بل ما عرفناه هو (شريعة حمورابي) وحده.

وفي مصر كان هناك إخناتون (القرن 14ق.م.) وهو أيضاً حاكم (أو كما يقال: سَلِيطٌ = «سلطان») اشتهر بأنه نادى بفكرة التوحيد في الدين. والحق أن توحيد إخناتون كان توحيداً غامضاً، وهو لم يخرج عن أن بدَّل اسم (أمون) فجعله (أتون) والأمر كان أمر صراعٍ سياسي بينه (وهو الفرعون الضعيف الجسد غير المقاتل أو لنقل: المسالم) وبين كهنة أمون. ومع هذا لا يمكن إنكار أن إخناتون كان مفكراً بطريقة ما، وأنه توصل بفكره الذي خالف فيه الكهنة إلى تحقيق سلطته السياسية وإلى إحداث خلخلة في بناء المجتمع المصري القديم، بل المجتمع المحيط بمصر يومذاك، ترددت أصداؤها في دعوة موسى وما تبعها من أحداث. كان إخناتون يمزج الدين بالسياسة، أو الفلسفة (إذ لم تعرف هذه الكلمة في مصر القديمة) بالسلطة. وكان ـ بمقياسنا ـ فيلسوفاً متسلطاً أو سليطاً متفلسفاً. . . لا فرق إلا في سبق ظهور أحدهما على الآخر.

حمورابي وإخناتون مثلان على حكم الفيلسوف، أو الفيلسوف الحاكم، ضربناهما من الشرق العربي القديم. غير أن ثمة فلاسفة آخرين مشهورين من الشرق الأقصى عرفوا بالحكمة وبأنهم قادوا شعوبهم إلى طريق أفكارهم الخاصة، فاتبعهم

العدد الوفير. ويبرز من بين هؤلاء إسمان علمان؛ بوذا في الهند، وكونفوشيوس في الصين.

لقد برز بوذا بين القرنين السادس والخامس ق.م. (وهو ذات العصر الذي شهد بدايات التفكير الفلسفي الأوليّ أو البدائي عند اليونان). ولعل تجربته في التعامل مع السلطة تعتبر تجربة مغايرة؛ فقد كان أميراً ابن أمير، وكانت السلطة في يده، ولكنه آثر التنازل عنها واتبع سبيلاً مخالفاً تماماً.. إذ (نزل إلى الجماهير) ـ كما هو تعبيرنا الحديث ـ بعد تجربة اعتكاف عنيفة مع الذات وطفق يبشر بمذهب يدعو إلى المحبة وقتل الشهوة واتباع البساطة في الحياة. فما الذي دفعه إلى هذا يا ترى؟ أتراه استجاب لذلك «الهاتف» الذي عرفه الأنبياء أم تراه شبع من السلطة المطلقة التي كانت لديه باعتباره «راجا» عظيماً، وما زاد عن حده انقلب إلى ضده؟ هذا أمر يحتاج إلى نقاش أطول لا تحتمله هذه العجالة على كل حال.

أما كونفوشيوس، حكيم الصين وفيلسوفها، فمن الثابت أنه بالرغم من حكمته ـ أو بسبب هذه الحكمة ـ سعى إلى السلطة سعياً حتى افْتُكَّت من بين يديه. ولد كونفوشيوس سنة 551ق.م. وكان معاصراً للحكيم لاوتسي، وكان أيضاً داعية لبعض الآراء (الهدامة) التي جعلت الجماهير تقذفه بالحجارة وملك مقاطعة «وي» يسخر به؛ فيُرْكب (الحكيم) عربة نقل تتبع

العربة الملكية وخليلته فيها، كُتِب فوقها: (انظروا إلى الفضيلة تجرها الشهوة!). وكان لا بد لكونفوشيوس أن يبحث عن سبيل لخلق «الملك الصالح» (أم لينتقم؟)؛ فكان أن التحق بخدمة ملك مقاطعة «تشي» علّه يلقن الملك الفلسفة. لكن رئيس الوزراء كان يرى أنه ليس سوى واحد من هؤلاء الحكماء غير العمليين الحالمين فطرد من منصبه، وبالرغم من هذا مضى إلى ملك مقاطعة «تشونغ تو» ليصير رئيس قضاتها حتى قال الملك يوماً له ـ وهو يتأمل سيقان جواريه ـ «يا معلم.. حان وقت رحيلك!» فرحل لينقلب جوّالاً يدعو إلى مذهبه. لقد نزل هو الآخر إلى الجماهير، وتعلّم ـ بعد حين ـ ألاً فائدة من هداية الملوك.

وكانت تجربة كونفوشيوس مع السلطة تدعو إلى الرثاء فعلاً. ولكنه الرثاء المشوب بالإعجاب.

هل نذكّر هنا بأن الهند التي أنجبت بوذا هي ذاتها التي أنجبت المهاتما غاندي ـ تلك الروح العظيمة التي لم تستقر عظمتها إلا بتحقيق استقلال بلادها وتسلم السلطة كاملة في شبه القارة العتيقة؟ وماذا كان للحكيم صاحب المغزل والعنزة أن يفعل لو لم يتسلم السلطة وظل قابعاً في كوخه يغزل ثوبه ويحلب عنزته الهزيلة؟ أم هل نذكر أن صين كونفوشيوس نفسها هي صين ماوتسي تونغ، الثائر الشاعر الفيلسوف، وهو الذي

خلق الصين من جديد بعد سنة واحدة فقط من بعث غاندي الهند التي لا تزال تسير على تعاليمه؟

وفي اليونان:

نترك الشرق، أدناه وأقصاه، ونمضي إلى حيث انبثق التعبير الدارج «الفلسفة».. نمضي إلى بلاد اليونان.

ومنذ البداية الأولى للفلسفة اليونانية نصطدم باسم صولون (640 ـ 556ق.م.) وهو المعدود من الحكماء السبعة المشهورين ـ ويكفي أن نعرف أنه اشتهر باسم «صولون المشرِّع». والتشريع، في الحق، هو وضع نظام للمجتمع يسير عليه في شكل قانون أو شريعة ـ تماماً كما فعل حمورابي قبله بأكثر من ألف عام. وكانت غاية صولون ورفاقه أساساً إصلاح النظم والأخلاق، وهذا «الإصلاح» بالذات هو ما قد يسمى ثورةً أو انقلاباً أو نحوهما إذا ما وُفِّق صاحبه في الوصول إلى السلطة بالمعنى السياسي للكلمة، أو السلطة التنفيذية. لكن كان يكفي صولون أن يُتَّبع في تشريعاته، وهو هنا تمتع بـ(السلطة التشريعية) التي هي ـ أحياناً ـ أنفذ من السلطة التنفيذية وأعمق أثراً وأكثر سيطرة على المجتمع. وإلا فلماذا كان «يشرِّع» أصلاً إن لم يكن يهمه تنفيذ تشريعاته، أي رؤيته هو للنظم والأخلاق؟

كان هذا فيما اصطلح على تعريفه بـ(فجر الفلسفة اليونانية)

وقد تبعه «الحكماء السبعة»، المتأثرون بالشرق في نظرتهم للحياة، وتبعتهم أدوار لـ(فلسفة اليونان) صارت فيها هذه الفلسفة نظريةً صرفة تهتم بعلل الوجود، ونظام الكون (مثل مدرسة الأيونيين وطاليس وهرقليطس وغيرها) والفيثاغوريين (أتباع فيثاغوراس) والإيليين (أكسانوفان وبرمنيدس وزينون.. الخ)، وطرأ طور آخر اهتم بالعلم الطبيعي (إمباذوقليس، ديموقريطس، أنكساغوراس، وأتباعهم) وهذه مدارس لا تهتم بالمجتمع والإنسان ـ حتى جاء السفسطائيون بعد أن دحرت أثينا الفرس وحفظت لليونانيين استقلالهم فنبغ العلماء والشعراء والفنانون والمؤرخون و«قويت الديمقراطية في جميع المدن وتعاظم التنافس بين الأفراد فزادت أسباب النزاع.... وشاع الجدل القضائي والسياسي» فملأ السفسطائيون النصف الثاني من القرن الخامس ق.م.

ثم ظهر شيخ فلاسفة اليونان سقراط (469/ 399ق.م.) الذي يقال إنه أول من «أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض» بمعنى أنه حوَّل وجهة التفكير في ما وراء الطبيعة، أو في أصل الكون وعلة الخلق وعناصر الوجود الأولى، إلى الاهتمام بالحياة ذاتها، أي بالإنسان والمجتمع. وصحيح أنه لم يُعرف عن سقراط ـ بقدر ما وصل إلينا ـ تطلعه إلى السلطة لفرض مذهبه، ويبدو لنا أن هذا راجع بالدرجة الأولى إلى أن شيخ

الفلاسفة لم يكن تمكن من تحديد مذهب متكامل لتنظيم المجتمع أو وضع ركائز أساسية لهذا التنظيم على الأقل.

لكن منهج سقراط (المضادّ للسفسطائيين/ الديمقراطيين) حشد حوله جماهير الأثينيين وأصاب شهرة واسعة كما جلب عليه سخط الشعراء والخطباء السفسطائيين والسياسيين. كانت مهمته تغيير مسار التفكير، والاهتمام بجوانب معينة من الحياة الخلقية والقيمية والمعرفية بسطها تلميذه أفلاطون في (محاوراته) ولا نعلم قدر أمانته في النقل عن شيخه، والأرجح أن هذه المحاورات هي آراء أفلاطون ذاته رواها على لسان أستاذه. ولكن ممثلي السلطة أنفسهم في أثينا يومذاك رأوا في آراء سقراط تهديداً للمؤسسة السلطوية واتخذوا منه موقفاً متشدداً أدى إلى مصيره شارباً لسم الشوكران.

وهي نهاية فاجعة سببها الخوف على البناء الاجتماعي السائد وخشية المتسلطين من أفكار سقراط. وحين اتُّهم بأنه (ينكر آلهة المدينة ويقول بغيرهم ويفسد الشباب) فإن أسباب الاتهام كانت في الواقع شخصية وسياسية؛ لأن سقراط ـ علاوة على تسفيه الشعراء والخطباء ـ كثيراً ما كان يحمل على النظام الديمقراطي وينتقد ما يقوم عليه من مساواة مسرفة تقوم على العدد والانتخاب بالقرعة. ولقد زعم سقراط في دفاعه أن «إرادة إلهية» أوحت إليه أن يعظ مواطنيه ويحثهم على الصلاح فهو

نورهم وهدايتهم والمحسن إليهم بتعاليمه ونصائحه.

ومعنى هذا، بوضوح، أن شيخ فلاسفة اليونان لم يكن يكتفي بنقده للنظام (الديمقراطي) الأثيني لما يرى فيه من عيوب بل هو يقدم بديلاً يأتيه «وحياً» من مصدر غير بشري. . وإن كان بديلاً غير كامل الصورة. فقد كان هذا الوحي متقطعاً كما قرأنا ولم يكن متسلسلاً في شكل يمثل نظاماً تامًّا للمجتمع. ومن يدري؟ لعل سقراط كان «نبيًّا ضيَّعه قومه» ـ كما كان خالد بن سنان عند العرب ـ واغتالوه كما اغتيل عدد كبير من الأنبياء الدعاة من قبله ومن بعده.

بعد سقراط جاء تلاميذه، وأشهرهم على الإطلاق أفلاطون (437 ـ 347ق.م.) وهو أول فيلسوف يتمكن من تقديم نسق متكامل لتنظيم المجتمع كما يراه هو من خلال مبادىء وأسس نظرية لهذا التنظيم وضحها في (جمهوريته) التي تصور أنها النظام الأمثل للجماعة يحقق السعادة لها ويضمن سيرها على الطريق القويم. ولسنا هنا في مجال تقويم أو نقد أفلاطون السياسي أو (الجمهورية) ذاتها ولا في باب النظر إلى آرائه الميتافيزيقية ـ كنظريته في المثل أو النفس وما إليها. لكن الذي يهمنا أن أفلاطون تمثَّل مجتمعاً ما في ذهنه أراد تحقيقه في الواقع ـ فما هو السبيل إلى ذلك؟

كان من المستحيل في أثينا ذاتها أن يتحقق مشروعه، فتلك

المدينة العجيبة يومها كانت تتمتع بنظام «ديمقراطي» أي «حكم شعبي» يحول دون أفلاطون والوصول إلى السلطة، وهو حتى إن وصلها بانتخاب، كما انتخب بركليس من قبل، غير قادر على التفرد وفرض مشروعه بسلطته المطلقة. هذا هو السبب الذي جعله يلجأ إلى ديونيسوس، جبار صقلية، يلوذ ببلاطه ويتقرب إليه محاولاً إقناعه بتبني فكرته وتطبيق مشروعه، إما عن طريقه، بتعيينه في منصب يمكنه من التنفيذ الفعلي، أو باتخاذ فكرته منطلقاً له يطبقه في صقلية ليكون نموذجاً واقعياً له. لكن سوء الحظ كان لأفلاطون بالمرصاد وكان منافسوه من الفلاسفة في بلاط ديونيسوس يحاربونه بضراوة، وكانت النتيجة سوء العلاقات بين «الفيلسوف» و«الجبار» حتى انتهى الأمر إلى أن يباع أفلاطون في سوق الرقيق بأمر ديونيسوس يدلل به النخّاس بعد أن أفلت من الإعدام فيشتريه رجل جاء من شرق ليبيا هو «أنيكريس» بعشرين منّاً ويعتقه، وحين عوض الليبي عما دفع لتحرير رقبة الفيلسوف تبرع بالمال لكي يشتري أفلاطون بستان أكاديموس ويبني الأكاديمية، قانعاً بأن يجلس في ظل أشجارها لينشر تعاليمه وحلمه بمجتمع تصوّره وحرم من الوصول إلى السلطة لتحقيقه.. فلعل أحد تلاميذه يحققه.

لكن للدكتور بدوي في مؤلفه عن (أفلاطون) رأياً آخر فهو يسأل: لأي سبب أو لأيّ دافع اتجه أفلاطون إلى متابعة سقراط

والأخذ عنه؟ ويجيب: «أكبر الظن أن أفلاطون قد حاول أن يجد عنده أولاً تلك التربية التي يطلبها كل أرستقراطي، وهي التربية التي تؤهل المواطن، خصوصاً الأرستقراطي، لأن يكون يوماً ما من أولي الأمر والقائمين على شؤون الدولة، يضاف إلى هذا أن أفلاطون قد أراد أيضاً أن يجد عند سقراط تعاليم عن الدولة وماهية العدالة.. فكان أفلاطون ينشد من وراء تتلمذه على سقراط إذن أن يتلقَّى أولاً تربية سياسية، وثانياً أن يتعلم منه العدالة».

ويذهب روبرت ماكيفر (تكوين الدولة. ترجمة حسن صعب، ص66) إلى أن إقرار أفلاطون لأستاذه سقراط على رفضه الفرار من سجنه راجع إلى احترام أفلاطون لقوانين أثينا وحرصه على استقرار المدينة/ الدولة في شكلها الذي كان. ونحن نعرف أن أفلاطون كان أرستقراطي النشأة وأن عمه كريتياس كان رئيس الطغاة، والديمقراطيون هم الذين استلموا الحكم بعد تحطم أسطول أثينا وسقوط كريتياس. والديمقراطيون هم الذين قتلوا سقراط.. ويذكر د. جميل صليبا (من أفلاطون إلى ابن سينا، ص25) أن أفلاطون كان يكره ديمقراطية بركليس كما كان يكره استبداد كريتياس.. «وربما كانت صفات أفلاطون الطبيعية وشرائط حياته الاجتماعية أقرب إلى أن تجعل منه رجلاً سياسياً أو رئيساً حربياً، لأنه كان شريف

النسب قوي البنية حتى لقد حاز في الجندية عدة امتيازات وحصل في الألعاب الرياضية على جوائز كثيرة». وكان «يرغب في حياة اجتماعية مبنية على العدل. ولعله لم يحب سقراط ولم يتبع آثاره إلا لأن سقراط كان عادلاً وحكيماً».

أفلاطون كان يكره الديمقراطية والدكتاتورية معاً. كانت له إذن وجهة نظر خاصة يمكن بها إصلاح أحوال أثينا المتدهورة، وربما إصلاح العالم كله. هذا ما جعله يلجأ إلى صقلية، فلما أخفق أصيب بخيبة الأمل وانكفأ على نفسه ولعل (صفاته الطبيعية) كانت وراء سعيه ذاك. من يدري ماذا كان يحدث لو تسلم أفلاطون السلطة؟!

من جملة تلاميذ أفلاطون كان أرسطو (384 ـ 322ق.م.). والذي يقال هو أن أرسطو خالف أستاذه في كثير من مواقفه، إما في آرائه الميتافيزيقية أو في مذهبه الطبيعي أو المعرفي، هذا لا يهم. والذي يهمنا أن أرسطو ـ باعتباره فيلسوفاً ـ كان له هو أيضاً حلمه الخاص به في مجتمع يقوم على أسس فكرية من وضعه هو. هذه الأسس التي نراها ـ بطريقة أو بأخرى ـ في مؤلفه (الدساتير) ونجدها مبثوثة في مؤلفات له أخرى. وأرسطو أيضاً لم يكن مستطيعاً أن ينفِّذ مشروعه؛ فقد كان يمنعه وجود فيليب موحِّد بلاد اليونان، ومن بعده الإسكندر الأكبر. ولم يكن لدى أرسطو من سبيل إلى السلطة ذاتها، فكان أن التحق

بركب من يملكها. وما من ريب في تأثير أرسطو في تلميذه الإسكندر الذي كان مشغولاً بإعداد العالم القديم لصورة من صور النظام الشامل بعد فتح كامل، ولكن القدر لم يمهل الإسكندر طويلاً فمات في زهرة شبابه، ومات الحلم معه، وانطوى أرسطو على نفسه، كأستاذه أفلاطون، يفكر في العلة الأولى والمحرك الذي لا يتحرك.

فبعد وفاة أفلاطون ترك أرسطو الأكاديمية مغضباً لعدم اختياره خليفة للأستاذ (أليس هذا بحثاً عن السلطة؟) وذهب إلى آسيا الصغرى حيث مكث مدة في مدينة (أسس) مع حاكمها هرمياس، وقد أسفره هذا إلى فيليب ملك مقدونيا، وكان والد أرسطو طبيباً في بلاط هذا الأخير. . فاختار فيليب «المعلم الأول» ليكون معلماً لابنه الإسكندر. ويقول د. بدوي في كتابه عن (أرسطو) ما نصه: «**شعر أرسطو في بادىء الأمر بصغر هذه المهمة بالنسبة إلى مطامعه خصوصاً وأن الروح السياسية نفذت إليه وشغلته طوال هذه المدة التي بقي فيها عند هرمياس فملأته بالمطامح السياسية. وعلى كل حال، فقد كان لأرسطو تأثير كبير في توجيه تفكير الإسكندر، وهذا يظهر خصوصاً من تطور السياسات عند أرسطو، فقد بدأت على غرار الجمهورية الأفلاطونية، وكان أرسطو يصور نفسه حينئذ في بلاط فيليب كما كان أفلاطون عند دينيس (ديونسوس) ولكننا نجده بعد ذلك**

يتطور إلى تصوير للوقائع السياسية كما هي، صارفاً النظر عن تلك الأحلام السياسية الأفلاطونية. والأثر الأكبر الذي تركه أرسطو في الإسكندر هو ما كان عند أرسطو من ميول ضد الفرس، فقد ملأ الإسكندر بهذه الميول. وهذا يفسر لنا لماذا ذهب هذا الأخير يغزو بلاد فارس» (ص30).

هذا ما يقرره د. بدوي، لكن يوسف كرم يورد كلاماً آخر في (تاريخه) للفلسفة اليونانية، يقول في جملته إن أرسطو اضطر إلى مبارحة أثينا مرة أخرى بعد وفاة الإسكندر، إذ بدأت مطاردة الأجانب من جديد (وأرسطو لم يكن أثينياً). . «**واتجهت الأنظار إلى أرسطو مع أنه لم يشتغل بالسياسة قط**». وهذا رأيٌ غريب، إذ ماذا كان يصنع الفيلسوف مع الإسكندر، ومن قبله فيليب، ومن قبلهما هرمياس؟ ونحن نعرف أن العلاقة بين الإسكندر وأرسطو توترت قبل وفاة الأخير بعامين لأن الإسكندر اكتشف مؤامرة لاغتياله، وكان من بين المتآمرين ابن أخت أرسطو نفسه أعدمه الإسكندر في جملة من تآمر عليه، فهل كان للفيلسوف ذاته ضلع في المؤامرة يا ترى؟!

لقد اشتغل أرسطو بالسياسة طيلة حياته، واضحاً أو مستتراً، وكان آخر مؤلفاته في (السياسة) ولم يكمله، وكانت له أحلامه التي كان مضطراً إلى سترها أو استعمال سواه لتحقيقها ـ شأن «الحكيم» العاقل العارف بنتائج اللعب بالنار.

الأبيقورية والرواقية:

في الفلسفة اليونانية، وإبَّان سيطرة فيليب المقدوني وابنه الإسكندر، انكفأت بعض مدارسها وابتعدت عن اللعب بالنار، ويمثل أبيقور، (340 ـ 271ق.م.) نموذج القانع بحياة اللذة السهلة أو (الدولشي ڤيتا) Dolce Vita يدعو إليها تلاميذه المعجبين وحوارييه المخلصين في «الحديقة» وارفة الظلال مشتبكة الأغصان مغردة الأطيار. ولم يبدُ أنه سعى إلى السلطة العامة (أيجرؤ في عهد الإسكندر الأكبر؟!) ولكن يبدو من الواضح أن نفسه كانت تنازعه إليها لو استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ فهو (بالضبط مثل نيتشه في ما يلي من الزمان) كان ضعيف البنية لكنه شديد الاعتداد بنفسه يدَّعي أن مذهبه وليد فكره ولا يعترف بفضل أحد ممن سبقه أو عاصره. ويظهر أنه اكتفى من السلطة بهذه الحلقة التي حوله من حوارييه الذين كانوا يقدسونه ولا يعصون له أمراً. وانتشرت تعاليمه في حياته ونشأت مراكز أبيقورية في اليونان وإيطاليا (اليونان الكبرى) وقد بلغ من تقديس تلاميذه له أن اعتبروه إلهاً جاء العالم بوحي جديد. وماذا يبغي أكثر من هذا؟ فلو امتد به العمر وسمحت له الظروف آنذاك فما الذي كان يمنعه من القفز إلى عرش الإسكندر وإعلان ألوهيته كما أعلنها الإسكندر نفسه من قبل في معبد أمون بواحة سيوة؟

في الفترة نفسها ظهر زينون (336 ـ 264ق.م.) وإذا كان

أبيقور اختار الحديقة لينشر تعاليمه، فإن زينون اختار الرواق (السقيفة، عند الإسلاميين: المظلة، الاصطوان) ليبثَّ مذهبه. ومن الملاحظ أن زينون، مثل أبيقور، يمثل انسحاباً من الحياة العامة، أو تراجعاً عن النشاط السياسي، والاهتمام بالحياة الخاصة والعودة إلى الأفكار المجردة.. «الحكمة: علم الأشياء الإلهية والإنسانية، ثلاثة أقسام: العلم الطبيعي، الجدل، الأخلاق». والناس عنده كلهم إخوة، ليس بينهم عبيد ولا أسياد، ووطن الحكيم الدنيا بأسرها. وهذه فكرة لم تكن تجد صدىً في اليونان يومذاك وآراء أفلاطون الطبقية، ودعوة أرسطو إلى السيادة اليونانية، لا تزال أصداؤها تتردد بفتوحات الإسكندر.

ولكن من العجيب فعلاً أن يُقَدَّر للفلسفة الرواقية أن تُعَرَّفَ في تاريخ الحضارة الرومانية برجلين: عبد وسيد. والرومان لم يكونوا فلاسفة، ولكن الفلسفة الرواقية وجدت موطن قدم في إيطاليا على كل حال.

أما العبد فهو أبيكتاتوس (حوالي 60 ـ 130 ميلادية). وهو كان رقيقاً كسر سيدُه رجلَه من شدة ضربه إياه، فلما مات هذا وتحرر أبيكتاتوس من رِقِّه حاول تعليم الفلسفة في روما، لكن الامبراطور (دوميتيان) طرده من المدينة بحجة أنه «خطر يتهدد الدولة».

هل كان هذا العبد الأعرج المسن خطراً يهدد الدولة فعلاً حتى يهتم بأمره إمبراطور روما شخصياً؟ هذه ـ فعلاً ـ مسألة تحتاج إلى نظر.. ولعل مصدر الخطر يأتي من أن الرجل كان عبداً ـ وفي نفس العبد تعتمل دائماً عوامل الثورة وإن كتمها وتظاهر بعدم المبالاة. ومن يدري؟ لعل سبارتاكوس جديداً يظهر على مسرح الأحداث في روما فيثير ما أثاره. وسبارتاكوس كان ثائراً جاهلاً وبالرغم من هذا فقد هزَّ أركان الإمبراطورية هزًّا عنيفاً. أما أبيكتاتوس فهو رجل «حكيم» وسوف يجمع الأتباع من حوله، ويمثل الخطر الحقيقي الداهم. أليس هو القائل: «ليس لديَّ ما أفقده سوى حياتي»؟ ولم يكن لديه فعلاً ما يفقده حتى أنه رفض الزواج لكي يحتفظ باستقلال روحه وجسده معاً، ولا يقع تحت «سلطة» الزوجة القاهرة.

وأما السيد ـ الذي كان يشارك العبد في المبدأ الرواقي القائل بأن جميع الناس إخوة يجب أن يعيشوا متآلفين في عالم متَّحدٍ واحد ـ فهو الامبراطور ماركوس أوريليوس (161 ـ 180ف) صاحب «قوس المجد» الشهير بطرابلس الغرب. ولعل إيمانه بهذا المبدأ كان أقوى قبل أن يعتلي سدة العرش، فلما فعل كان هو الفيلسوف نفسه الذي يقتل الغرباء الأبرياء «محافظة على مملكته» ويعذب أتباع المسيح ويقتلهم دون رحمة لأنهم ـ كما قيل ـ كانوا يؤمنون بمملكة غريبة في السماء، ولم يكن

ذلك ـ في رأيه ـ إلا تحدياً للمملكة الرومانية (= مملكته = سلطته) على الأرض. . فكان يقتلهم ويلقي بهم إلى السباع، وفي حلقات المجالدة، دون نظر إلى «الأخوة الإنسانية» والعيش في عالم متحدٍ واحد. . متآلفين. تلك تمحوها «شهوة السلطة» فينسى الفيلسوف مبادئه، ويفقد ما آمن به من قيم.

أوغسطين:

وما دام الحديث جرنا إلى روما، وامبراطورها الفيلسوف ماركوس أوريليوس، وصراعه مع أتباع المسيح، فلا بأس هنا من التعريج على أحد رموز النصرانية الكبار، كان هو الآخر فيلسوفاً ومبشراً. . و. . قدِّيساً.

ظهرت النصرانية والامبراطورية الرومانية في عنفوان شبابها الأول، ولا نتعرض هنا لـ«طموحات» مؤسسيها الأول ونشرهم دعوة المسيح(*) التي ستؤدي حتماً إلى استلام السلطة دنيوياً ودينياً، فيما بعد. وقد رافق انتشار النصرانية انهيار الامبراطورية الرومانية ذاتها، فهذا هو شأن الحياة. وفي ما بين القرنين الرابع والخامس للميلاد لمع اسم رجل حُسِب قديساً وفيلسوفاً في الوقت نفسه، ذلك هو أوغسطين (354 ـ 430إفرنجي) صاحب «مدينة الله» وصاحب «الاعترافات» أيضاً.

(*) لا ننسى هنا أن المسيح يدعى حتى يومنا هذا «ملك اليهود»!

لقد ولد أوغسطين في الجزائر ولكن «طموحه» كما يعبر يوسف كرم في (تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط) قاده إلى روما حيث أنشأ مدرسة للبيان. ثم حدث الانقلاب الخطير في مجرى حياته، من شاب فاسق متهوِّر إلى رجل دين فاضل. بيد أن «طموحه» لم يتخلَّ عنه، فعاد إلى الجزائر ليصير أسقف مدينة «بونة» (عنَّابة) فيها ويمكث خمساً وثلاثين سنة عاملاً على نشر الإيمان. وحين أغار الوندال على شمال أفريقيا وتقدموا إلى مدينته كان يقود الدفاع عنها (عن السلطة التي أسسها في الواقع) وقضى قبل أن يكتسح «البرابرة» المدينة. وبكلمات كرم نفسه: «كان يتوقع ذلك المصير فراح وقد رأى العالم القديم يتحطم. فهل توقع أن عالماً سيخرج من بين الأنقاض المتراكمة يكون هو أكبر معلميه وهداته؟».

كان أوغسطين فتىً لاهياً، وكان له طموحه ـ ربما كان طموحاً بسيطاً في البداية، لكن هذا الطموح ذاته هو الذي قلبه من «اللهو» إلى «التُّقى» ومن الهزل إلى الجد، وهو بذا صار فيلسوفاً له «سلطته» على أتباعه، ينشر دعوته ويحلم بتغيير العالم.

في الإسلام:

نقفز قليلاً في الزمان والمكان، وقد انتقلت الفلسفة إلى الوطن العربي والعالم الإسلامي في حركة الثقافة والفكر العظيمة

تلك. ويلخص الدكتور عمر المالكي في مقدمته لكتاب أحمد بن الداية (العهود اليونانية) الذي نشره بعنوان (الفلسفة السياسية عند العرب) ـ يلخص ما نريد قوله: «**إن بداية الفلسفة لم يكن سببها الدين فقط، كما يزعم هنري كوربان، ولكن كان سببها أيضاً السياسة والاجتماع**. فالأحداث السياسية التي حلَّت بالأمة بعد موت النبي والمنافسة والتناقضات السياسية الدينية أثرت في الفلاسفة وأصبحت مصدراً أساسياً من مصادر تفكيرهم . . . **كان مفكرو الإسلام في الغالب رجال سياسة أو مستشارين سياسيين كما كانت أفكار الفلسفة السياسية ذات موقع مع أو ضد وضع سياسي**».

هذا حق. ولا أظن أحداً يجهل صلة الكندي (فيلسوف العرب) الأول بالبلاط العباسي، كما أن سلطة ابن رشد وتوليه القضاء للموحِّدين، لا تقل عن انغماس (الوزير) ابن طفيل معهم، تماماً كما استوزر المرابطون الحكيم ابن باجة، ولعل سلسلة طويلة لن تنتهي لو سردنا قائمة المتصلين بالسلطة من الفلاسفة الإسلاميين، بمختلف اتجاهاتهم، بدءاً من الكندي وانتهاءً بابن خلدون الذي كانت صلته حتى بـ(تيمورلنك) معروفة، وفيما بينهما يأتي عدد آخر في مقدمتهم الشيخ «الرئيس» ابن سينا (980 ـ 1036إفرنجي).

إن الشيخ الرئيس يعرِّف الفلسفة بأنها: «صناعة نظر،

يستفيد منها الإنسان علم الوجود بما هو موجود، وعلم الواجب عليه فعله، لتشرف نفسه وتصير عالماً معقولاً مضاهياً للعالم الموجود وتستعد للسعادة القصوى بالآخرة». وهي تنقسم عنده إلى ثلاث دوائر: المنطق، والطبيعيات، والإلهيات.. إلى آخر ما يمكن أن نأتي به من أقواله عن (الفلسفة) بما هي فلسفة. ولا يبدو من كلامه هنا اهتمامه بالسياسة عدا رسالة صغيرة في (السياسة) ونفاجأ بأن المقصود هو سياسة الأولاد أي (التربية) ـ لكن هذا الفيلسوف بالذات كان منهمكاً في السياسة بالمعنى الذي نعرفه اليوم حتى قمة عمامته الكبيرة، وقريباً من السلطة، بل في معتركها. فمنذ بدايته الأولى نجده يتصل بأمير يدعى نوح بن منصور، ثم يمضي إلى همذان فيصبح وزيراً لملكها شمس الدولة، ولكن ابن شمس الدولة أبى إلا أن يذيق الشيخ الرئيس طعم السلطة القائمة لأهل الحكمة والنظر (حتى إن كان نظراً مجرداً!) فسجنه بضعة شهور من باب التجريب. ولم يتعظ الفيلسوف (لعله استمرأ طعم السلطة هو ذاته!) فما أن خرج من سجنه حتى مضى إلى أمير أصفهان، علاء الدولة، ليخدمه هو أيضاً. وظل ينتقل من قصر أمير إلى قصر أمير حتى مات في همذان، حيث سطع نجمه في بداية الأمر.

لقد خلّف ابن سينا تراثاً هائلاً في الطب والفلك والرياضة، وطبعاً ـ في الفلسفة. وكانت كتبه مرجعاً أساسيّاً للمهتمين

بالفكر فيما تلاه من الزمان، وهو شغل مئات المجلدات بالحديث عنه وعن نظرياته الفلسفية حتى يومنا هذا. بيد أن صلته بالسلطة تحتاج وحدها إلى بحث خاص وإلى تتبع حياته وآرائه المبثوثة في مؤلفاته مما لا يتسع المجال له الآن.

وإذا كان ذكر أفلاطون في الفلسفة اليونانية يقترن بأرسطو، فإن اسم ابن سينا يظل ناقصاً إذا ما أهمل أبو نصر الفارابي (870 ـ 950إفرنجي) الذي سبق ابن سينا. وقد عرف عن الفارابي تنقله بين بغداد وحلب قريباً من الحكام، وهو عاش حتى آخر أيامه في بلاط سيف الدولة الحمداني. وفي سيرة حياته يذكر دائماً أنه كان «فقير الحال زاهداً في الدنيا معرضاً عن الجاه والمال. ومع أن أباه كان قائداً فارسياً فقد أعرض عن المناصب الرفيعة» وتُروى قصص عن «زهده» في المال والسلطان (جميل صليبا: من أفلاطون إلى ابن سينا).

غير أن ابن خلدون في (مقدمته) يورد رأياً عند حديثه عن السيمياء (أي محاولة تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة، أو إلى «ذهب») يقول فيه: «وأكثر من يُعنى بذلك الفقراء من أهل العمران حتى من المتكلمين في إمكانها أو استحالتها، فابن سينا القائل باستحالتها كان من علية الوزراء فكان من أهل الغنى والثروة، والفارابي القائل بإمكانها كان من أهل الفقر الذين يعوزهم أدنى بُلْغة من المعاش وأسبابه».

ويحاول الدكتور جميل صليبا في كتابه (من أفلاطون إلى ابن سينا) تفسير هذا النص تفسيراً فرويدياً (!) كما ذكر هو بالتحديد، ويرد رأي ابن خلدون بتأكيد زهد الفارابي وإعراضه عن المال والجاه. غير أنه لم يُنْكِر آهتمام الفارابي بالسيمياء (الكيمياء السحرية) ولم يبرر لنا هذا الاهتمام. والسؤال: ماذا يفعل هذا الحكيم الزاهد بالمال إن تحقق له طلبه يا ترى؟! هل كان هذا الفيلسوف الأفلاطوني الهَوَى يبحث عن سبيل آخر يتمكن به من فتح مغاليق العالم إن وصل إلى غايته؟

هذه واحدة. أما إعراضه عن «المناصب الرفيعة» فما نظنه ترفعاً وبعداً عن السلطة (كيف وهو في بلاط الحمدانيين؟) ولعل السر يكمن في ما يورده ابن خلدون في سياق حديثه عن الفارابي من أنه «كان قليل الملكات العملية... ضعيف التدبير» وهذه صفة عرفها عن نفسه، أو عرفها الحمداني عنه، فلم يكن له في «المناصب الرفيعة» كبير نصيب.

وتظل الثالثة، وهي تقرير واقع الحال من أن الفارابي (بالرغم من كون أبيه قائداً فارسياً) لم يكن بمستطيع عمل شيء على الإطلاق وسيف «سيف الدولة» مصلت (ومملكته عربية) تماماً كما لم يكن أفلاطون مع ديونيسوس، ولا من قبله ولا من بعده ممن ذكرنا ونذكر. لكن «الحلم السلطوي» يظل عالقاً

بذهن صاحبه حتى الممات، وهكذا لجأ الفارابي إلى الخمائل ومجاري المياه يسطر على الورق تصوره لـ «المدينة الفاضلة» كما لجأ أفلاطون إلى بستان أكاديموس يكتب «جمهوريته» ولجأ زينون إلى «رواقه» وأبيقور إلى «حديقته»، ولجأ من بعده كارل ماركس إلى ضاحية «هاي غيت» الجميلة من ضواحي لندن يكتب (رأس المال) ويحرر (المانفستو). وكلهم يعرف أن أفكاره لن تتحقق إلا بالوصول إلى السلطة ـ سلطة المال، أو الجاه أو سلطة العمال والكادحين ـ وينبغي أن تكون سلطة مطلقة، وإلا فلا، حتى تتحقق الأحلام، إن لم يكن على يد الحالم فعن طريق سواه من الأتباع، في الحياة أو بعد الممات.

علماء الكلام:

من المؤكد أن علم الكلام لم يكن ليزدهر بالشكل الذي نعرفه لو لم تحركه الدوافع السياسية والسلطوية، وما كنا لنعرف هذه الأسماء الكبيرة من علماء الكلام الذين يعتبرهم أرنست رنان ممثلي الفلسفة الإسلامية باعتبار «الفلاسفة» الإسلاميين عنده مجرد نقلة للتراث اليوناني. ومن الثابت أن مسألة الخلاف الجوهرية الأولى في نشأة علم الكلام كانت مسألة (الإمامة) وهي القضية الخطيرة التي تصارع من حولها القوم بالسيف

والقلم. ولا ضرورة هنا للخوض في تفاصيل الموضوع فهو أوضح من أن يفصل، لكن الإشارة ضرورية إلى أن ما دفع الخوارج إلى حمل السلاح كان «فكرة» آمنوا بها، كما آمن الشيعة بفكرة أخرى حاربوا في سبيلها أهل السنة الذين دافعوا عن موقفهم بحد السيف، أما المعتزلة فيقال إنهم «اعتزلوا» الصراع الدائر بين الطوائف، أو الفرق، ليس حقناً للدماء فيما يبدو بل لأنهم أدركوا إمكانية الوصول إلى السلطة عن طريق آخر.. وقد وصلوا إليها فعلاً أيام المأمون والمعتصم وحتى الواثق، إلى أن انتصر خصومهم عليهم في عهد المتوكل وكان الانقلاب ضدهم، يصحبه انقلاب من الداخل على يد الأشعري، سلب السلطة من أيديهم وأسلمها إلى أهل السنة من بعد.

ولا جدال في أن المعتزلة توسلوا بالسلطة لفرض آرائهم (بالرغم من أنهم يدَّعون حرية الفكر)، وهذه إحدى النقاط التي تؤخذ عليهم. وحين بلغوا حد السيطرة على عقل المأمون وقلبه كان فرضه القول بحدوث القرآن عن طريق القوة معروفاً (وهي فكرة قد تبدو غير ذات بال ولكن القول بهذا الحدوث يجر وراءه قضايا أخرى بالغة الأهمية في صلب العقيدة الإسلامية) ـ حتى كان المعارض العنيد، ابن حنبل، يجرجر في الأغلال.

وابن حنبل نفسه (الفقيه المحدث المفكر) لم يتوانَ عن دعوة «الحوشية» (كما يسميهم المعتزلة) أي عامة الناس إلى الثأر من معارضيه حين وصلت أفكاره إلى السلطة.

وفي تاريخ الفرق وعلم الكلام (= الفلسفة الإسلامية) مجال واسع للحديث عن صلة الفلسفة والسلطة، تأييداً أو معارضة، وكلها محاولة لبلوغها والاستئثار بها.. إن أمكن.

الصوفية:

وإذا كان من تعريفات علم الكلام أنه «**الفلسفة الدينية**» في الإسلام ـ وهو في الحق مختلط **بالفلسفة السياسية** ـ فقد جرى في الأذهان أن التصوف هو «**الفلسفة الروحية**» ليس غير، بيد أن نظرة خاطفة إلى تاريخ التصوف تبرهن بيقين على أن هذه «الروحية» كانت مرتبطة بالمادة كل الارتباط. فهي لا تسبح في الملكوت السماوي ولا تبتعد عن قضايا المجتمع والناس إلا بقدر ما يوهم الآخرين بألاَّ خطر سياسياً من التصوف ورجاله.

تحضرني قصة يرويها أبو حيان التوحيدي في كتابه (الإمتاع والمؤانسة) عن جماعة من الضائقين بالأحوال سنة 370هـ. يوم كانت خراسان تشتعل بالفتنة. وقد اشتد الجور وطالت المدة وغلت الأسعار وخيفت السبل وكثر الإرجاف وساءت الظنون وضجت العامة ـ رامت هذه الجماعة البعد عن الدنيا فمضوا إلى

بعض الزُّهَاد، يسمّى أولهم أبا زكريا. فكان أول سؤاله عما بلغه من حديث السلطان وأمر الناس «فمالي والله في هذه الأيام مرعىً إلا ما اتصل بحديثهم». فتركوه وذهبوا إلى الزاهد أبي عمرو فكان أول كلامه: «يا أصحابنا.. ما عندكم من حديث الناس؟ فقد والله طال عطشي إلى شيء أسمعه.. فهاتوا ما عندكم!» فانطلقوا إلى الصوفي أبي حسن الضرير، فابتدأهم: «ما عندكم من حديث الناس؟ وما الشائع من الأخبار؟ وما الذي يتهامس به الناس؟» فتركوه، وفي طريقهم لقيهم (شيخ من الحكماء) اسمه أبو الحسن العامري فأخبروه بلهفة هؤلاء الزهاد إلى معرفة ما يجري يومذاك. فقال لهم: «إنما غركم ظنكم بالزهاد، وقلتم لا ينبغي أن يكون الخبر عنهم كالخبر عن العامة لأنهم الخاصة، ومن الخاصة خاصة الخاصة»، ثم حاول تبرير هذا الاهتمام بالدنيا وشؤونها تبريراً يقوم على الرغبة في معرفة تصاريف الخالق في خلقه، وليس معرفة تصاريف الخلق أنفسهم.

التصوف في حقيقته ليس زهداً تاماً، وإن تكن أسسه تختلف عن بعض الفلسفات. وهو في كثير من الأحيان منغمس في الحياة والسياسة والصراع على السلطة حتى أذنيه. ومن يعيد النظر في تاريخ التصوف يكتشف هذه الحقيقة ببساطة. وإلا

فلماذا قَتَل الحجاج بن يوسف سعيد بن جبير مثلاً؟ إن لم يكن يمثل خطراً على سلطة بني أمية والحجاج بالذات؟ ولماذا صلب الحلاج(*) يا ترى؟ إن لم يكن يرمي إلى هز أركان سلطة بني العباس لأمر أو لآخر؟

يمكننا ـ بالطبع ـ ذكر عدد وافر من الصوفيين الذين سعوا إلى السلطة وحاولوا قلب الأنظمة، في المشرق والمغرب. لكن هذا سيستغرق وقتاً طويلاً. وتكفي الإشارة إلى عدد من الأنظمة قامت على أساس صوفي (المفروض أنه روحي لا علاقة له بأحوال البشر). منها على سبيل المثال دولة المرابطين في المغرب ودولة التيجاني في السنغال وجنوب الصحراء الكبرى، وعبد الله التعايشي والمهدي في السودان.. وغيرهما مما هو معروف مشهور. ويروي لنا أحمد زروق في كتابه (عدة المريد الصادق) أحداثاً كثيرة قام بها الصوفيون ـ مثل عمر السيَّاف، وفي لقبه دلالة ـ محاولة للوصول إلى السلطة أيام المرينيين. بل

(*) يقول أبو العلاء المعري عن الحلاج في (رسالة الغفران):

«والحسين بن منصور الحلاج من نيسابور وقيل من مرو، يدَّعي كل علم، وكان متهوراً جسوراً يروم إقلاب الدول، ويدعي فيه أصحابه الإلهية، ويقول بالحلول ويظهر مذهب الشيعة للملوك ومذاهب الصوفية للعامة، وفي تضاعيف ذلك يدعي أن الإلهية قد حلّت فيه.. وقال في كتبه: إني مغرق قوم نوح ومهلك عاد وثمود».

(الطبعة 5 ـ بتحقيق بنت الشاطىء، دار المعارف بمصر، ص36 ـ 37).

إن كبار رجال الصوفية، أو شيوخهم، عملوا باستمرار على إنشاء «زوايا» هنا وهناك منتشرة في أنحاء الوطن العربي والعالم الإسلامي، ولم تكن هذه الزوايا إلا مراكز سياسية انطلقت منها في كثير من الأحيان ثورات وانتفاضات وانقلابات لم تكن لتحدث لو أن الصوفي (ذلك «الفيلسوف الروحي») كان قانعاً بالبعد عن الحياة ومشكلاتها زاهداً في الدنيا، لا يملك تصوراً لنظام معين يريد أن يفرضه على مجتمعه.

مرت في التاريخ الإسلامي، وبه، فترات من الزمان ما بين مد وجزر، وهدوء واضطراب. ويتزاحم في تاريخ الفكر العربي والإسلامي عدد وافر من المؤلفات السياسية لا تكاد تحصى ولا نتعرض لشيء منها هنا.

ولا نكاد نلمح منذ أيام ابن خلدون ـ الذي تجاوزناه هو أيضاً طلباً.. للاختصار ـ مفكرين على مستوى يمكن أن يحسبوا به في عداد «الفلاسفة» حتى يأتي العصر الحديث. ويجوز لنا هنا أن نذكر اسمين برزا أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين: **جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده**، نردفهما بثالث.. من باب التحوط.

أما **الأفغاني** فقد كان سعيه إلى السلطة واضحاً، وكان تنقله ما بين البلدان العربية والإسلامية مرتبطاً بمحاولة إشعال نار

الثورة على ما كان في زمنه. وقد دفع الخوف من نجاحه إلى دس السم له، فقضى قبل أن يصل إلى بغيته. وأما تلميذه محمد عبده فقد اكتفى من السلطة بطرف حسب أنه مستطيع عن طريقه تغيير الأحوال ـ فكرياً على الأقل ـ فكان «الإمام» (قارن ابن سينا الشيخ «الرئيس») بأن صار شيخاً للأزهر معقل التأثير الديني والفكري والاجتماعي يومذاك، وعلاقته بالسياسة معروفة. ويظل الثالث، عبد الرحمن الكواكبي، مثالاً صارخاً على سعي «الفيلسوف» إلى السلطة بدعوته الدائمة إلى الثورة، والدعوة إلى الثورة هي السبيل لإحداثها والوصول إلى السلطة الفعلية بعد ذلك. وتشهد له مؤلفاته (طبائع الاستبداد) و(أم القرى) مثلاً بأنها منشورات ثورية بأسلوب العصر الذي عاشه.

في أوروبا:

وتغرق أوروبا في ديجور عصورها الوسطى المظلمة بعد هجمة البرابرة وانقسام الامبراطورية إلى شرقية وغربية، وبعوامل صراع بيزنطة وفارس.. وعوامل أخرى كثيرة. وتنطفىء شعلة الفلسفة فيها، إذ استلمها العرب والمسلمون، ولا نكاد نعثر على فيلسوف ذي بال يمكن البحث في موقفه من السلطة، فقد صارت أوروبا ساحة لتشابك الأنياب والأظافر يَعُمّها الجهل ويغلفها الظلام. حتى إذا أذن فجر نهضتها بالانبلاج عاد إلى

الفيلسوف شأنه وعرفنا أسماء توالت منذ عصر النهضة حتى أوائل هذا القرن الذي نعيش أواخره. فلننظر شأن بعض من مشاهير الفلاسفة الأوروبيين.

توماس مور (1477 ـ 1535إفرنجي):

ومن البداية يلمع اسم توماس مور. كان فيلسوفاً مهتماً بالحياة والناس والمجتمع، وهذا الاهتمام هو الذي دفعه إلى الاقتراب من السلطة محاولة منه للتأثير في مجرى الأحداث ـ ومع من؟ مع هنري الثامن، ملك إنكلترا الرهيب. وبالرغم مما ركب في طبيعة هنري الثامن هذا وما اشتهر به من طغيان في مختلف النواحي، فإن مور لم يبتعد عن ناره المحرقة، فتولى جملة من المناصب (السلطوية) في عهده؛ إذ كان رئيساً للشرطة، ورئيساً للبرلمان، ثم رئيساً للوزراء.

وبالرغم من هذه (السلطات) الواسعة فإنه لم يكن في مقدور الفيلسوف أن يفعل الكثير. ذلك ببساطة لأن ثمة سلطة أعلى منه وأعتى وأقدر. وكانت النهاية في ما يمكن تسميته بـ(صراع السلطتين) بين الملك المرعب ووزيره (الحكيم) ـ كما هو متوقع ـ إذ سقطت رأس الفيلسوف المفكرة تتدحرج في مياه نهر الثيمز. لكن هذه الرأس ذاتها لم تسقط إلا بعد أن خلقت لنا الـ (يوتوبيا) التي كتبها مور يحلم بعالم يسوده العدل

والمساواة في نظام تصوَّره هو، ولكنه نظام ـ للأسف ـ موجود، أو هو في الحق غير موجود، في (اللامكان).

فرنسيس بيكون (1561 ـ 1626إفرنجي):

نشأ نشأة أرستقراطية. وكما كان والد أفلاطون أرستقراطياً وعمُّه أحد طغاة أثينا، ووالد أرسطو طبيب فيليب المقدوني الخاص، فقد كان والد فرنسيس، السير نيكولاس بيكون، حامل أختام الملكة إليزابيت الأولى. وقد انقسمت شخصية فرنسيس بيكون ما بين «الحكمة» و «السلطة» بشكل مُفْجِع، لكنهما تعايشتا بشكل أو بآخر وإن تغلبت إحداهما على الأخرى حيناً بعد حين. كان بيكون يقول: «كنت أعتقد أنني خلقت للقيام بخدمة البشرية.. وأخيراً أدركت الأمل الذي أحققه إذا ما تربعت في منصب من مناصب الدولة السامية بحيث يمكنني الحصول على معونة دائمة تعينني على أداء مهمتي المُقدَّرة لي في حياتي».

هذه المهمة، للأسف، تبدت في عفونة سياسية ومالية قاتلة وهو يستلم المنصب السامي في البلاط الإنكليزي. فقد تميز هذا «الحكيم» بالخيانة والغدر وكانت «شهوة السلطان» تساير عنده «شهوة المال» وحوكم بتهمة الرشوة والفساد وقد أدرك هو ـ بعد فوات الأوان ـ حقيقة ما آل إليه فعبر عنه بقوله: «إن الإفراط في شهوة السلطان كان سبباً في سقوط الملائكة». وهو

تعبير يتضمن القول ـ ربما من باب الاعتذار ـ إن الملائكة (ويقصد هنا إبليس) «تشتهي السلطان» فما بالك بالفيلسوف الإنسان البشر؟!

الغريب حقيقة أن يقول الدكتور هنري توماس بعد حديثه هذا عن بيكون ما نصه: «ومع هذا فإن مصنفاته التي يعتبرها هو مبتورة تمثل ما يمكن أن يوصف بأنه أعظم إنتاج للفكر الإنساني منذ عصر أرسطو حتى بيكون نفسه»(!).

باروخ سبينوزا (1632 ـ 1677إفرنجي):

كان فيلسوفاً يهودياً قميء الشكل، لكن عقله الفوّار عوّض عن شيء من قماءته، وكانت له هو الآخر أحلامه. منذ صباه عبَّر عن هذه الأحلام لأبيه قائلاً: «عندما أشبّ سأحاول أن أجد وسيلة أضع بها حدًّا لكره الناس بعضهم البعض». ولعله يقصد الناس بني جنسه من اليهود. ولكنه أدرك شيئاً عميقاً ومهماً هو أن هذا الكره سببه اليهود أنفسهم، ولعله، لذا، حاول الانفصال عنهم بالخروج عن بعض معتقداتهم مما أدى إلى طرده من مجتمعهم المغلق. وكان العالم ـ فيما يراه سبينوزا ـ فسيحاً يمكن أن يجد فيه مكاناً يعبر من خلاله عما في نفسه. ولكن وضعه هو بالذات يهوديًا بين المسيحيين، ومتمرداً بين اليهود، جعل من المستحيل عليه الوصول إلى الوسيلة أو السلطة، التي يروم.. فانكمش على نفسه في عالم آخر من الأفكار

الميتافيزيقية. وبالرغم مما قد يوحي في سيرته وأفكاره بالبعد عن السياسة والسلطة فإن من اللافت للنظر حقاً أن يكون آخر كتبه (رسالة في السياسة)، ولم يكمله.. فإن سبينوزا ذاته لم تكتمل حياته اكتمالاً كبيراً، إذ مات في الخامسة والأربعين.

جون لوك (1632 ـ 1704إفرنجي):

في السنة نفسها التي ولد فيها سبينوزا الهولندي ولد الفيلسوف الإنكليزي جون لوك، وشتان ما بين حياة الاثنين. كان أبو لوك من جملة الثوار على تشارلز الأول، مع أوليفر كرومويل، ضد الحكم المطلق والظلم. فلما انتصر كرومويل كان هو ذاته دكتاتوراً! وقد اتجه لوك إلى السياسة كما فعل بيكون من قبل، وإن ناقضه في أخلاقه وطباعه، وهو أيضاً كرس حياته «الخدمة الإنسانية» وانغمس في السلطة لأنه وجدها السبيل الوحيد لتحقيق أحلامه، أو بعضها على الأقل، وأمكنه الحصول على منصب في مجلس إدارة مستعمرة التاج (كارولينا) وعاون في رسم مشروع دستور حر للمستعمرة مؤكداً أهمية إباحة الحرية السياسية والاجتماعية والدينية في لائحة المشروع. ولم يكن هذا مطلوباً أو مرغوباً فيه بعد عودة الملكية إلى إنكلترا، فعاد للتدريس في أكسفورد (تدريس الفلسفة طبعاً) غير أن أُذن الملك الطويلة المنصتة سمعت أن لوك ألّف كتيباً يدعو فيه إلى الثورة، فأرسل عليه الجواسيس مما اضطره إلى الهرب

إلى هولندا ليعيش بقية حياته هناك. . بالضبط كما فر أرسطو من قبل، ولجأ ماركس من بعد.

جان جاك روسو (1712 ــ 1778إفرنجي):

ونترك الجزيرة البريطانية ونذهب إلى فرنسا. حيث أحد أشهر رجالها. وعندما نقرأ (**اعترافات**) روسو قد نخدع بصورة زائفة عن الفيلسوف الصريح، فالاعترافات هذه مشحونة بالخيال، وأدب الأسلوب أو أسلوب الأدب. فهو لم يكن فقط ذلك العاشق المحب، بل كان ذلك الحالم بعالَمٍ جديدٍ يُبْنى على أفكاره هو يدعو فيها للعودة إلى الطبيعة والتخلي عن المدينة التي هي الشر المطلق، وكأني به يريد القول بالتخلي عن «السلطة التقليدية» التي نمت جذورها عبر القرون، وقلب النظام الاجتماعي، أي هدّ البناء كله وإعادته من جديد. . كما يراه. وإذا كانت لروسو آراء دينية مخالفة فإن مذهبه السياسي (السلطوي) في الواقع، في كتابه (**العقد الاجتماعي**) بالذات، كان أشد خطراً من هرطقته. وهذا ما جعل ملك فرنسا يصدر أمراً بالقبض عليه بعد صدور الكتاب فلجأ إلى جنيف حيث لم يجد استقبالاً حسناً. . كلا، بل أحرق كتابه نكاية فيه، ففر إلى ألمانيا وهناك كاد يُقضى عليه، وكان ملجأه الأخير إنكلترا. هناك. . كانت نهايته حيث دفعه الخوف من أن يغتاله أحد إلى أن يقتل نفسه ــ و: بيدي لا بيد عمروا

إن (العقد الاجتماعي) يمثل أحد منطلقات الثورة الفرنسية. أما (إميل) فهو نظريته في تربية الجيل الجديد كما يرى التربية. لكن (هلواز الجديدة) كان حلمه في المجتمع الذي يتصوره مما يذكّرنا بحلم أفلاطون في (الجمهورية) والفارابي في (آراء أهل المدينة الفاضلة) من قبل وبـ(يوتوبيا) توماس مور من بعد.

ألم يكن روسو يتمنى لو كان هو ملك فرنسا ليحقق من خلال (سلطته) كل هذه الأحلام؟

ڤولتير (1694 ـ 1778إفرنجي):

عندما يذكر روسو لا بد أن ينصرف الذهن إلى «الفيلسوف الضاحك» ـ كما لُقّب ـ السيد ڤولتير. وقد كان في بداية أمره على خلاف مع روسو، ثم لم يلبث في أواخر أيامه أن وافقه في كثير من آرائه. ڤولتير الساخر هذا زِير النساء البهلواني الصورة، كان ـ كما يقال ـ ثائراً ضد الملك ونظام الحكم، وأحد تعريفات الثائر أنه الباحث عن تغيير النظام الذي يمقت بنظام يؤمن هو بصلاحه، ولن يكون هذا إلا عن طريق تسلم السلطة، لكن تكوين ڤولتير والظروف المحيطة به جعلته يقترب ـ أو لعله يتقرَّب ـ من السلطة أحياناً ويناصبها العداء أحياناً أخرى. ولقد تعرض للسجن مرات بسبب تعبيره عن آرائه بسخريته المرة في الأوضاع والشخصيات السياسية، وعرف زنزانات الباستيل كما عرف ما يمكن أن تفعله السلطة بفيلسوف نحيل حين يهددها.

ومثل من سبق من «مهدي السلطة» من الفلاسفة اضطر ڤولتير للهجرة إلى إنكلترا حيث مكث ثلاث سنوات كتب فيها جملة من (الرسائل الفلسفية) وهي رسائل سياسية، أو منشورات، ميَّز فيها بين حرية الإنكليز ـ يومها ـ وعبودية الفرنسيين، وكانت هذه الرسائل شرارة من أوائل الشرر الذي ألهب الثورة الفرنسية. والتحق ڤولتير ببلاط فريدريك الأكبر، امبراطور روسيا، واتخذه صديقاً له ـ ظانًا أن الملوك يختلف بعضهم عن بعض (!) لكن هذا ما لبث أن طرده فمضى إلى جنيف حيث مات بعيداً عن وطنه.

وتتوالى حبات المسبحة؛ في ألمانيا يقابلنا عمانويل كانْت (1724 ـ 1804إفرنجي) ذلك الفيلسوف المنظم الدقيق، القصير المحدوب الأنيق، فقد شغل حياته بـ(النقد) فهو الذي كتب أهم مؤلفاته: (نقد العقل الخالص)، و(نقد العقل العملي)، و. . . (نقد الحكم)، وفي هذا المؤلف الأخير كان يرى صورة للعالم من زاويته الخاصة بحيث يكون الإنسان «غاية في حد ذاته» إذ «ليس هناك أبشع من أن يخضع سلوك إنسان لإرادة إنسان آخر». وقد عاش حياته بنظام ودقة و. . انضباط. ولذا لم يتعرض لما تعرض له روسو أو ڤولتير من قبل، لكنه ـ وهو في الواحدة والسبعين وقد غربت شمس حياته ـ أحس أنه لا بد أن يقول شيئاً، إن لم يفعل. فكتب (السلام الدائم) يدعو فيه لقيام

اتحاد عالمي يضم دولاً حُرَّة ويحمل على الحكام المنهمكين في تبذير الأموال على الإعداد للحروب بدلاً من إنفاقها في تعليم الشعب، وهم الذين «يظنون الدولة ملكاً خاصًا لهم»، ويدعو إلى تنظيم دول العالم الحرة على أساس ديموقراطي حتى «لا تعلن الحرب إلا إذا أخذ رأي المواطنين جميعاً».

والسؤال الذي يخطر في البال: هل كان الفيلسوف (كانْت) يطبق «سلامه الدائم» لو قدر له أن يكون هو حاكم بروسيا يومذاك؟ هل كان يطبقه لو كان حاكماً ولم يجاوز السبعين؟ أم يحدث له ما حدث لماركوس أوريليوس الرواقي (الطيِّب) ولفرنسيس بيكون (الحكيم)؟

ويرد في القائمة من بعد (كانْت) فيلسوف التشاؤم المفزع شوبنهاور (1778 ـ 1860إفرنجي). لقد كان بومةً مخيفةً تنعق، وكانت مشكلته الحقيقية: السلطة، والنساء! فهو بقدر ما مقت المرأة ـ نتيجة حياته الأولى وبسبب أمه النكدة ـ مقت السلطة في أية صورة من صورها، وعلى هذا قام مذهبه التشاؤمي الأسود؛ إذ لا أمل في شيء، والأولى بالجميع الموت. فهل كان سينظر إلى السلطة هذه النظرة لو قيض القدر له أماً حنوناً وزوجة صالحة؟ ما أظن.

ويلي شوبنهاور فيلسوف معقَّد آخر اتخذ منه أستاذه وقرأ ما كتب وتأثر به، ولكنه فهم مذهب الأستاذ فهماً خاصاً به وفسره

على هواه وزاد عليه ما جادت به روحه القلقة المعذبة بكل عقد نقصها المركبة، أعني فردريك نيتشه (1844 ـ 1900إفرنجي). لقد كانت السلطة بالنسبة إلى نيتشه حلماً مستحيل المنال ـ أعني السلطة بأي معنى كانت.. ومع ضآلته وضعفه فقد حسب أنه أقوى الأقوياء، وكان يرى نفسه «مسيحاً ضد المسيح» فهو المسيح وشوبنهاور يوحنا المعمدان الذي بشَّر به، وهو صاحب فكرة الإنسان الأعلى، أو «السوبرمان»، ومبدأ القوة والغلبة وأنه ليس للضعفاء إلا السحق الكامل دون رحمة أو شفقة.

كان نيتشه يحلم في غرفته المسدلة الستائر، إذ كان أعشى لا تقاوم عيناه النور، بتدمير العالم ومسح البشر جميعاً ما عدا الأقوى منهم والأعتى. كان الظلام مسيطراً على عقله وروحه كما سيطر على باصرتيه. فالسلطة لديه وسيلة تدمير وخراب ليس غير.

ولم يمتلك شوبنهاور السلطة، كما لم يمتلكها نيتشه، لكن أفكارهما الجهنمية وجدت طريقها إلى التطبيق على يد تلميذهما النجيب.. هتلر، كما وجد ميكيافيلي تحقيق أفكاره في تابعه موسوليني من بعد.

قد يبدو أننا لن ننتهي لو مضينا في استعراض صلة فلاسفة أوروبا بالسلطة. ونحن لم نتعرض كثيراً لمجرى حياتهم الخاصة وعلاقتهم بـ«الحكام» لكن العذر أننا لم نذكر سوى «الأعلام»

منهم وكل منهم له أثره الخطير. ومن الطبيعي ألاً يتم عرضنا إلا بذكر اثنين آخرين على الأقل وهما أعرف من أن يُعَرَّفا، أما الأول فهو كارل ماركس، وأما الثاني فهو جان بول سارتر.

في القرن التاسع عشر يبرز اسم كارل ماركس بتفرد، لأثره الواضح في مجريات أحداث العالم المعاصر. وكان ماركس يحلم بالسلطة لتحقيق المجتمع الأمثل لديه، المجتمع الشيوعي. لكن الظروف لم تساعده، ولم يكن قادراً على الوصول إليها، وهو الرجل المنفي عن وطنه يعيش في بلاد غريبة عنه. فزاول سلطته عن طريقين: سلطة شخصية مباشرة في زميله «إنجلز» وسلطة غير مباشرة في طبقة البروليتاريا. وترك مهمة مواصلة السعي إلى امتلاك السلطة ذاتها إلى تابعه لينين.. وقد فعل، واستطاع أن يقلب مجتمعاً رأساً على عقب وأن يبدل من مجتمعات أخرى كثيرة. وكان (رأس المال) لماركس هو «إنجيل الشيوعية» كما هو التعبير المعروف، لكن هذا لم يمنع لينين من تعديلات في هذا الإنجيل وتطويرات وتحويرات أنتجت لنا «الماركسية ـ اللينينية»، ذلك ببساطة لأن للينين شخصيته وآراءه ومذهبه الخاص به وإن كانت كلها في الإطار الأشمل.. إطار الشيوعية. ولا ضرورة لحديث هنا عن نماذج تطبيقية أخرى تميزت بشكل أو بآخر عن الأصل الماركسي وإن ادعت الانتساب إليه.

أما سارتر، عَلَمُ الوجودية المبرَّز، فقد كان يسارياً في بدايته، وكان من التفاؤل بانتصار الاشتراكية وتقويض النظام الرأسمالي بقدر جعله يتخلى عن السياسة ـ كما يقول عنه موريس كراتستون ـ تاركاً الأمر يجري مجرى «الحتمية التاريخية» لكن لقاءه بسيمون دي بوفوار جعله يقتنع بخطأ موقفه وبأنه «لا بد من التدخل في السياسة» وهذا التدخل هو «واجب الكاتب. . .» وإلى ماذا يسعى هذا التدخل؟.

إنه ـ بالطبع ـ يسعى إلى تحويل السلطة من يد إلى يد. وليس ثمة ما يمنع من أن تكون في يد سارتر ذاته ما دام يرى نفسه قادراً على تغيير العالم مالكاً لرؤية نموذجية يسعى إلى تطبيقها ويستجلب لها الأتباع والأنصار، إما عن طريق الاتصال الشخصي أو بالكتابة ـ وهي وسيلة الفيلسوف للتأثير. كلا. . بل بالسلاح. فقد اشتغل سارتر ببحث موضوع المقاومة للاحتلال الإلماني مع أصدقائه من أمثال ميرلوبونتي وكازبن وديزاني، ممن يقاسمونه الاهتمام بالفينومينولوجيا الماركسية.

فما الذي كان يهم سارتر إن حكم باريس هتلر وغويلز وجنود الغستابو لو كان ينظر إلى المسألة من وجهة نظر عالمية بحتة؟ لكن فيلسوف الوجودية الإنسانية يدرك بجلاء ـ وهذا صحيح ـ أن السلطة الحاكمة هي التي تسيِّر المجتمع، وهو

يخالف ـ بل يقاوم بشدة ـ فلسفة النازيين/ النيتشيين لأنها تمثل خطراً على فلسفته هو، أي على سلطته هو وعلى رؤيته للمجتمع كما يجب أن يكون. ومن هنا جاء انغماسه ـ فيما تلا من حياته ـ في شؤون السياسة حتى لقد ارتبطت شهرته فيلسوفاً بشهرته سياسياً. كلا بل إن الجانب الفلسفي فيه ينزوي جانباً إلا من بعض عبارات «كليشيهية» كان يرددها من يسمون أنفسهم «الوجوديين» لم تلبث أن ماتت بموت سارتر الذي لم ينسَ أن يقف قبل وفاته بمدة قصيرة على «برميل» في حي سان جرمان معلناً أن ما كتبه في (الوجود والعدم) وغيره من مؤلفاته مجرد كلام فارغ لا طائل من ورائه وأن ينسلخ مما قال ودعا إليه من قبل.. كما انسلخ أبو الحسن الأشعري قبله بأكثر من ألف عام!!

نتائج وخاتمة:

لقد استعرضنا في ما مضى من الصفحات، وبشيء كثير من الاختصار والحذف، مجموعة من أعلام التفكير الفلسفي (هل نقول: النظري؟) بغية الوصول إلى موقف (محبِّي الحكمة) من السلطة. وفي تصوري أنه لا يمكن الفصل بين «الفكر» و«الموقف» لأن كليهما تعبير عن الذات، عن الشخصية. وقد نرى فكراً لا يتطابق مع موقف صاحبه أو العكس، ولكن هذا

ليس راجعاً إلى الشخص ذاته، بل هو عائد إلى مجموعة من الظروف المحيطة، أو الضواغط، تجبر المرء عليه. ومن الممكن الآن ـ فيما نرى ـ استخلاص جملة من النتائج تتأتى من العرض الذي قدمناه:

1 ـ يبدو من قراءتنا لتاريخ الفلاسفة أن ثمة بعضاً منهم لم يكن مهتماً بالآخرين، بل هو معنيٌّ بشؤون ذاته، فأديوجين الكلبي مثلاً يبدو كأنه لم تكن له علاقة كبيرة بذوي السلطان(*) وهذا فيما نرجح غير صحيح. إنه في الواقع «مهتم» ولكنه اهتمام سلبي، وهو بموقفه يعلن تمرده على الواقع، أي على السلطة التي لا يجد من نفسه القدرة على خوض غمار حربها.

2 ـ بعض الفلاسفة كان مستغرقاً في «عالم الغيب»، عالم الميتافيزيقا، أو ما وراء الطبيعة، وبالتالي يقل اهتمامه

(*) معروفة هي قصة أديوجين الكلبي مع الإسكندر الأكبر عندما وقف هذا الأخير يمتطي صهوة جواده ويحاور الفيلسوف، ثم سأله عما يطلب منه أداءه له، فقال أديوجين: أطلب أن تتنحى قليلاً بجوادك.. فإنك تحجب عني الشمس الدافئة!

هذه الكلمة تعبير صارخ عن الاحتجاج، لكنه تعبير مصاغ بدقة «فلسفية» حكيمة.. كما ترى. مذهب الكلبيين ـ بالمناسبة ـ يشبه تماماً موقف الملامتية في تاريخ التصوف الإسلامي؛ الاحتجاج على الأحوال!

بعالم الشهادة، الذي يحوي عالم السياسة والسلطة. وهذا أيضاً موقف سلبي/ هروبي هو احتجاج على الواقع بإعلان عدم الواقعية بحجة البحث عن العلة الأولى للوجود وأصل الكون مرة، كما عند بعض فلاسفة اليونانيين، أو البحث عن حب الله، كبعض أهل التصوف الإسلامي والنصراني، أو الدخول في مناقشات هامشية كبعض قضايا علم الكلام.

3 ـ كلما زاد اهتمام الفيلسوف بالمجتمع كان اقترابه من السلطة أقوى وأشد. وقد تبدو أفكار الفيلسوف مجرد أحلام خيالية، ولكنه يصر على «واقعيتها» وأنها ممكنة التطبيق إذا ما تحققت الشروط الواجبة لهذا التطبيق ـ كما يفعل أفلاطون في (الجمهورية) مثلاً.

4 ـ قد نجد الفيلسوف مصاباً بالانفصام الفكري أحياناً، يتنازعه «عالم الغيب» مرة فيغرق في قضايا الميتافيزيقا، ويجذبه الواقع المعيش فيتصل بالحياة والناس وذوي السلطان أملاً في تحقيق مُثله في المجتمع المنظم. . أو حتى الفوضوي غير المنظم إلا بنظام الطبيعة، وهذا ملحوظ جداً عند معظم الفلاسفة والمفكرين بدءاً من أفلاطون حتى برتراند رسل في عصرنا هذا.

5 ـ إن صلة الفلاسفة بالسلطة وثيقة عراها، وهي قد تكون محاولة للإصلاح ـ من داخل النظام ـ كما رأينا، وقد تكون بالدعوة إلى الثورة على هذا النظام.

6 ـ النظام السلطوي قد يكون ممثَّلاً في فرد، مهما يكن، أي بشخص معيَّن كما رأينا، أو في شكل طبقة يتخذ منها الفيلسوف موقفاً (روسو/ ڤولتير) أو في شكل عام (النظام الديموقراطي الأثيني/ سقراط/ أفلاطون).

7 ـ قد يصل الفيلسوف إلى السلطة، تكبر أو تصغر، ولكن المتابعة المستقصية لتواريخ الفلاسفة تثبت أن النظر شيء والتطبيق شيء آخر (ڤارن ماركوس أوريليوس).

8 ـ قد ينجح الفيلسوف ـ إذا وصل إلى السلطة ـ في تطبيق فلسفته، لكنها لا تلبث أن تتراجع بانتهائه هو ذاته (إخناتون)، هذا يتبعه ضرورة اقتناع الجماعة بآراء الفيلسوف أولاً ثم اتّباعها، وليس الإجبار على تطبيقها حتى يتم الاقتناع.

9 ـ قد ترفض أفكار الفيلسوف في حياته، ثم تصير مبدأ الجماعة بعد وفاته ولو بوقت طويل (كونفوشيوس) حتى ليتحول إلى معبود (بوذا/ زرادشت).

10 ـ الفلاسفة يرفضون دائماً الأمر الواقع، ومن هنا تأتي جِدَّة وتجدُّد أفكارهم. ولكنهم ـ في الوقت نفسه ـ قد يتعايشون معه. هم رافضون نظريًّا على الأقل.

11 ـ بالاستقراء يثبت أن الفكر هو الذي يوجِّه السلاح، وليس العكس كما يبدو أول وهلة. قد يبدو أن الفيلسوف ضعيف أمام جبروت الحاكم الذي يعاصره أحياناً، لكن فكر الفيلسوف لا يلبث أن يجد من يتبناه ويدافع عنه وينشره بقوة السلاح.

12 ـ ليس ثمة شيء اسمه «الفلسفة الجماعية». هناك فلسفات تأتي من أفراد قد يتبعها مجتمع ما حتى تصبح فلسفة الجماعة. هذه الفلسفات في الواقع هي «تعبير عن الذات الفردية» مع الزعم أنها تعبير عن «الذات الجماعية». ولا يعني هذا أن الفرد منسلخ عن المجتمع بل المقصود أن «الأنا» تبدو واضحة في الـ«نحن» أو حتى في الـ«هُمْ».

13 ـ اختلاف تركيب الشخصية الفردية يؤدي إلى اختلاف (أحياناً: تعارض) الفلسفات (الجماعية). (ضد الديمقراطية: سقراط/ أفلاطون. الحق للقوة: نيتشه. الحق للطبقة: ماركس. الحق للفرد: سارتر. حكم النخبة: أفلاطون. هيمنة المادة: أبيقور. هيمنة الروح:

أوغسطين/ الصوفية. التسامح: بوذا. العين بالعين: حمورابي/ كونفوشيوس. ضرورة الثورة: ماركس/ الأفغاني. العودة إلى الطبيعة: لاوتسي/ روسو. المصانعة: ابن سينا/ محمد عبده. التسلل: المعتزلة. التقيَّة: الشيعة. العصيان: الخوارج، وهكذا.. إلى ما لا نهاية).

14ـ كل فيلسوف يزعم أنه يدعو لخير الإنسان، بالمعنى الكلي. هذا غير صحيح بإطلاق؛ لأن الدعوة في الواقع لخيره هو أو لما يراه هو خيراً. وهو من ناحية صحيح لأن كل واحد منهم إنسان يرجع إلى نسبية الحقيقة.

15ـ لا تنفصل مكونات شخصية الفيلسوف الأولى عن نتاج فكره. وقد يبدو أنها عكسية، لكن التحليل الدقيق يربط بين الفكرة والمكونات.

هذه بعض النتائج، ولا شك أن ثمة غيرها كثير يمكن استخلاصه. وتبقى خاتمة هذا الحديث:

كانت «الفلسفة» ـ بأي صورة أخذناها ـ و«السلطة»، وما تزالان وستبقيان أبداً، مرتبطتين ارتباطاً كاملاً لا ينفصم. ذلك لأن التعريف المعروف سيظل حقيقيًا: الإنسان اجتماعي (وفي

ترجمة أخرى: سياسي) بالطبع. والفلسفة تتعامل مع الفكر الذي يسيِّر المجتمع، أي مع السلطة. والفيلسوف إنسان.. ميزته أنه يفكر أكثر قليلاً من سواه. فإذا أحب السلطة فهو معذور؛ لأنه لا يمكن تحقيق «فكره» إلا عن طريق هذه «السلطة».

المراجع:

1 ـ ابن خلدون، عبد الرحمن؛ **المقدمة**، نشر المكتبة التجارية، مطبعة مصطفى محمد، القاهرة، بدون تاريخ النشر.

2 ـ بدوي، عبد الرحمن؛ **أرسطو**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1944.

3 ـ بدوي، عبد الرحمن؛ **أفلاطون**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1954.

4 ـ توماس، هنري؛ **أعلام الفلاسفة**، ترجمة متري أمين، دار النهضة العربية/ مؤسسة فرانكلين، القاهرة 1964.

5 ـ سمعان، أنجيل بطرس؛ **يوتوبيا**، توماس مور، ترجمة ومقدمة، دار المعارف، القاهرة 1974.

6 ـ صليبا، جميل؛ **من أفلاطون إلى ابن سينا**.

7 ـ كرانستون، موريس؛ **سارتر**، ترجمة مجاهد عبد المنعم

مجاهد، دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ نشر.

8 ـ كرم، يوسف؛ **تاريخ الفلسفة اليونانية**، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1958.

9 ـ كرم، يوسف؛ **تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط**، دار المعارف، القاهرة 1965.

10 ـ كرم، يوسف؛ **تاريخ الفلسفة الحديثة**، دار المعارف، القاهرة 1963.

11 ـ المالكي، عمر؛ **الفلسفة السياسية عند العرب**، تحقيق وتقديم لكتاب أحمد بن الداية: **العهود اليونانية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1971.

12 ـ المعري، أبو العلاء؛ **رسالة الغفران**، تحقيق عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة 1996.

13 ـ مكيفر، روبرت. م.؛ **تكوين الدولة**، ترجمة حسن صعب، دار العلم للملايين، بيروت 1961.

عن «اقرأ» و«الأميّ».. والصادق النيهوم(*)

منذ بضعة شهور قرأت مقالة للأستاذ الصادق النيهوم نشرت في الصفحات الأولى من مجلة «الناقد» اللندنية (العدد 57 ـ الشهر 3 ـ سنة 1993إفرنجي) مع عنوان بارز على الغلاف: (الفقهاء ضد الأنبياء). ولا يهمني هنا مناقشة ما جاء به الأستاذ النيهوم من آراء مكررة عن الفرق بين الفقه والدين، والمسجد والجامع، وأن تلقيب الخليفة في التاريخ الإسلامي بأنه «أمير المؤمنين» ليس «أمير المسلمين» يعني أنه أمير الجميع. . . مسلمين وغير مسلمين، وأن «الإسلام دعوة لا تستقيم إلا بإنهاء الخلاف الفقهي بين العقائد والأجناس» كما جاء في خاتمة المقالة. وهي آراء يمكن الاتفاق في بعضها مع الكاتب ـ

(*) أرسلت إلى مجلة (الناقد) ولم تنشر فيها، ونشرت في الملحق الثقافي لصحيفة (الشمس) ـ طرابلس 1994إفرنجي.

باعتبارها مسلمات خَفِيت أو أُخفيت ـ كما يمكن الاختلاف معه في بعضها الآخر نتيجة اختلاف التفسير ـ أو لنقل اختلاف التأويل ـ لبعض الآيات القرآنية الكريمة، واختلاف فهم بعض المواقف التاريخية على مدى زمن طويل.

الذي يهمني الآن في مقالة الأستاذ النيهوم ما أورده من تحليل لغوي مقارن لثلاث كلمات ارتأى أنها فهمت على غير حقيقتها، فأدت ـ تبعاً لسوء الفهم ـ إلى تحريف في دلالاتها، وانتهى هذا التحريف إلى نتائج أثرت في تاريخ الإسلام سياسياً واجتماعياً ودينياً. هذه الكلمات هي: «اقرأ» و «الأُمّي» و «الحنيف». وقد أَتفق مع الأستاذ النيهوم في الفهم، غير أنني أختلف معه في التحليل، ولعلني بهذا التعليق أضيف إلى ما قاله جديداً أو أوضح غامضاً أو أصوّب ما أراه غير صواب.

* * *

بدأ الأستاذ النيهوم مقالته بقوله:

«موجز القصة المتداولة في كتب التفسير، حول نزول سورة العلق، أن الرسول (عليه السلام) كان يتعبد في غار حراء عندما تجسد له الملاك وقال له: اقرأ. فقال الرسول: ما أنا بقارىء ــ أي لا أعرف القراءة. فضمه الملاك إلى صدره ثلاثاً حتى كاد يوجعه وهو يقول: اقرأ. والرسول يردد حائراً: ما أنا بقارىء.

مشكلة هذه القصة العربية أنها قصة يصعب إثبات زيفها بوسائل المنطق. فلا أحد يستطيع أن يؤكد أن الحادثة لم تقع ولا أحد يستطيع أن ينكر أن الله على كل شيء قدير» (انتهى نص النيهوم).

ويمكننا في هذا المجال إثبات أن هذه الحادثة لم تقع بدليل منطقي بسيط جدّاً هو أنه من غير المنطقي أن يرسل الله العلي القدير، العليم بكل شيء، ملاكاً إلى المصطفى (عليه السلام) لكي يهزه ثلاثاً وهو يأمره أن يقرأ. ألا يعلم ـ سبحانه ـ أن محمداً ليس بقارىء؟ ألا يدري ـ عز وجل ـ أن المصطفى لم يكن يستطيع القراءة حتى يرسل له ملاكاً يأمره: اقرأ؟ لا ريب في أنه يعلم، وهو العليم الخبير. فليس ثمة حاجة إذن إلى أن يؤمر محمدٌ (ص) بشيء لم يكن يدريه.

هذه واحدة. أما الثانية فتكمن في أن الرواية تقول إن الملاك (جبريل) جاء النبي (عليه السلام) يأمره بالقراءة، لكنها لا تقول إن جبريل قدَّم له كتاباً أو قرطاساً أو نحوهما. فماذا كان النبي سيقرأ إذن؟

ويضيف النيهوم:

«لكن ثمة خطأ لغوي فاضح ارتكبه الرواة من دون أن يدروا، على عادة المزورين في كل العصور. فالواقع أن كلمة

(اقرأ) لا تعني أصلاً فعل القراءة. إنها كلمة ذات أصل كلداني مصدرها (ق ر ا). وتعني: أعلن وجاهر ونادى وبلَّغ، ومنها في لغتنا العربية (يقرأ السلام) بمعنى يبلغه. وقد وردت في التراتيل الكلدانية بهذا المعنى في قولهم (ق ر ا ب ش م م ر ي ا) أي (نادِ باسم الرب) وهو المقصود في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾. فالآية لا تطلب من الرسول أن يقرأ، بل تكلفه بإعلان الدعوة التي تمثلت في تصحيح مفهوم كلمة (الرب) بالذات. ولهذا السبب تكررت الكلمة نفسها في الآية التالية مقرونة باسم التفضيل في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ وليس (الكريم) فقط. فكلمة (الرب) في لغتنا العربية مشتقة من (رب) في القاموس الكلداني التي لا تعني (الله) فقط بل تعني أيضاً (السيد) وهي صيغة ما تزال حية في قولنا: (ربة البيت) أي سيدة البيت». (انتهى النص).



لدي هنا جملة ملاحظات، تتمثل أولاها في قوله إن كلمة «اقرأ» ذات أصل (كلداني) مصدرها «ق ر ا». فلماذا الأصل الكلداني وما يعني ورودها في التراتيل الكلدانية؟

لنوضح أولاً أن «الكلدانية» كلمة غامضة معناها غير محدد. فهي تطلق على اللغة السريانية، وأمها اللغة الأرامية، كما تطلق

على بقايا اللغة البابلية بفرعيها: الأكادية والأشورية. وقد تخص اللغة السريانية، بفرعيها الشرقي (في العراق) والغربي (في سورية ولبنان). وقد تختص باللغة الدينية القديمة المستعملة في الكنائس الشامية بصفة خاصة.

وثانية هذه الملاحظات أن النص الذي أورده الكاتب من (التراتيل الكلدانية)، «قرأ بشم مريا» ـ دون تقطيع الحروف ـ نص عربي مبين: «قرأ» (اقرأ) «بشم» (باسم = بسم، كما في الرسم العثماني للمصحف) «مريا» (المرء = السيد، الرب. والألف الممدودة في آخرها هي أداة التعريف في السريانية).

وثالثتها أن القول بأن الجذر «ق ر ا» (الكلداني ـ كما حدده) هو أصل «قرأ» في العربية قول غير دقيق. ذلك لأن هذا الجذر مشترك في جميع اللغات العروبية، دون استثناء، بمعنى: صاح، صرخ، صوَّت، نادى. وليس خاصًّا بـ(الكلدانية) وحدها أخذته العربية عنها. وكذلك الأمر في الجذر (رب) الذي يستعمل في اللغات العروبية كلها ـ دون استثناء أيضاً ـ بمعنى السيد، لكن الدلالة الأولى فيه: الارتفاع، العلوّ ـ ماديًّا وحسيًّا ثم تطورت إلى الدلالة المعنوية. ولنقارن هنا العربية في جذرها (ربا) ومنها: الربوة = المرتفع من الأرض، وربا الشيء = نما وزاد، ومن ذلك الرِّبا ـ بكسر الراء ـ أي زيادة المال

المقترض عند رده. وأيضاً الجذر (ريب) ومنه: ربَّى، بمعنى: نمَّى، ومشتقات لا تكاد تعد: التربية، الربيب، المربى، المربوب.. الخ. وتُبْدل الراء نوناً فتكون: (نبا) ـ ومنها: النبوة = الربوة، والناب = السيد. وفي المصرية القديمة «ناب» = السيد. وهناك النبيٌّ والنبيءُ = الرفيع القدر، المشرَّف. وأيضاً: نبا = صاح، صرخ، ومن ذلك: النبأ، وجمعها: أنباء = الخبر، الأخبار. ونرى أن كلمة (حبر) بالحاء المهملة بمعنى العالم، وأصلها: الكاهن (قارن الاسم/ اللقب «كعب الأحبار») جاءت من مادة (خبر) ومنها: الخبير = العليم، والمخبر = المنبىء بالغيب أولاً، ثم المنبىء بالمعرفة (قارن صلة «عرَّاف» بـ«عرف»). وهناك الجذر (نبب) وفيه معنى العلو والارتفاع. نبَّ = علا، ارتفع. ونبنب = صاح، صرخ، ثغا (بالنسبة لذكور الماعز). وتقلب النون لاماً فتكون «البلب» (مضاعف «لب») في اللغة الحديثة ومنها «شجر اللبلاب» = المتسلق، المرتفع. ونحن نقول: «فلان يتكلم مثل اللبلب» أي أنه ينبنب، وينبىء، أي يصيح ويصوِّت. وهذا باب وسيع لا نكاد ننتهي منه إن بدأناه. ولكن من المهم الإشارة إلى أن استعمال كلمة «رب» ليس خاصاً بـ«ربة البيت» (التي تصب الخل في الزيت ـ على رأي بشار بن برد). فنحن نقول: رب العمل، ونجمعها على:

«أرباب» (جمع «رب») وهم كثيرون لا يحصيهم العد. فلنعد إلى (قرأ).

في سنة 1972إفرنجي (وليس 1993إفرنجي) قال د. محمد فنطر في مداخلة له في (ملتقى ابن منظور الأفريقي) الثاني الذي عقد بقفصة بالجمهورية التونسية ونشرت مداخلته في كتيب مع دراسات أخرى عن (دار المغرب العربي) ـ قال، وهو يربط الصلة بين ما يسميه (اللغات الساميَّة) إن «معرفتك للغات (السامية) القديمة، كالفينيقية مثلاً، توقفك على المادة الأصلية، وتوقفك على محتواها الأول. وقد يساعدك ذلك على ضبط تصور الكلمة من حيث هيكلها الحرفي ومن حيث معناها. قرأ. ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾. قرأ + ب = ذَكَرَ. «اقرأ باسم ربك» = «اذْكُرْ اسمَ ربك». (ص37).

والدكتور فنطر الذي أورد الجذر (ذكر) مرادفاً للجذر (قرأ) لم يشر إلى أن هذا الجذر مشترك هو الآخر بين اللغات العروبية ـ التي يدعوها اللغات الساميَّة ـ بمعنى الارتفاع الحسي أولاً ثم ارتفاع الصوت بعدئذ. بل إن هذا الجذر قديم جداً يعود إلى اللغة السومرية التي نعرف فيها كلمة «زَقُّورا» (والقاف تنطق معقودة كنطق عرب ليبيا لها) وتعني: المعبد المبني على ربوة عالية. وذلك على أساس تبادل الحروف القريبة مخرج

الصوت. ومن هنا جاءت كلمة «زقر» وهي ذاتها «سقر» و«صقر» = الطائر الجارح المعروف، سمي كذلك لأنه يعلو في السماء محلقاً في أجوائها الرفيعة. ومن المفيد أن نذكر هنا أن هذا الصقر يدعى في اللغة المصرية القديمة «حر» (صارت الكلمة في اليونانية «هورس» بإضافة سين العلمية وعادت إلينا: حورس). ولكن كلمة «حر» المصرية القديمة هذه تعني كذلك: علا، ارتفع، فوق، على، سما. وأضيفت إليها باء النسبة وتاء التأنيث فصارت «حريت» بمعنى السماء. وبتطور الدلالة: اللامحدود، المطلق. وهي ذاتها العربية «حُرِّيَّة» ومنها مشتقات: حُرّ، متحرر، التحرير، الحريات، العامة منها والخاصة. . الخ.

وفي القرآن الكريم ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ـ أي أعلينا من اسمك وصيتك (قارن صلة «الصيت» بـ«الصوت»)، أي ما ينادي به عليك وتُدْعى به. ثم تطورت دلالة (الذِّكر) إلى معنى استحضار اسم امرىءٍ ما في غيابه بصوت عال، أو استحضار فكرة ما بأن يجهر بها جهراً. ومن ذلك: حلقات الذكر ـ التي يرتفع فيها صوت المنشدين بالمدائح. وتبدل الذال المعجمة زاياً، وأرى أن كلمة «زكّار» في اللهجة الليبية، الذي يشبه تماماً نافخ القرب في الموسيقا الاسكتلندية، مشتقة من هذا، إذ هو ينفخ في قربته التي تدعى (الزُّكْرَة) ـ ويقول عنها (لسان العرب) إنها وعاء من

أدم، أي من جلد ـ فيعلو صوت موسيقاه حتى يبلغ عنان السماء. لكنه في كثير من الأحيان، بل في أغلب الأحيان، لا يجد آذاناً مصغية ـ كما هو حال الكُتَّاب في عالمنا ـ فيظل كما يقول المثل الليبي الشهير «زَكّارْ في باب جامع!» . . ولا من مجيب. وتبدل الذال المعجمة، والزاي، في «ذكر» (= زكر) شيناً فتكون (شكر). ومنها: الشُّكْر، وهو الحمد والثناء بصوت عال يوجه إلى من أسدى معروفاً أو تفضل بخبر. بيْدَ أن الذكر يأتي بعدئذ بمعنى التذكر، استحضار أمر ما في الذاكرة، دون صوت حسي فيما يبدو. وهذا غير صحيح، فإن التذكر عملية (كلام داخلي) أو (صوت باطني) في الدماغ، تهتز فيه ملايين الأعصاب وتتماوج بملايين الخلايا محدثة صوتاً لا يسمعه الآخرون بالأذن في تركيبها الحالي. وما من شك في أن كل إنسان منا يمر بهذه الحالة وهو يكلم نفسه. . صامتاً. . حتى ليسمع دوي كلماته، أو الكلمات التي يتذكرها داخل هذا الحاسوب العظيم الذي يسمى الدماغ. وأنت تقرأ هذا «الكلام» صامتاً ولكنك «تسمع» ما تقرأه. وكثيراً ما نسمع بعض الناس يهمهم في أثناء قراءته. إنه يحوِّل الكلام الصامت إلى. . كلام مسموع.



(1) اقرأ

نعود إلى «قرأ».

الجذر الثنائي الأصلي فيها هو (قر). ويفيد معنى الارتفاع الحسي أولاً. ولك أن تقارن الجذر الثلاثي (ق ر ر) ومنه: القرارة = الجبل الصغير المرتفع. ثم ارتبطت الدلالة بارتفاع الصوت. فنجد (القرقرة): صوت الضحك، وصوت بطن الجائع، وصوت الماء ينصبُّ من الجرة.. الخ. وتقول: قرَّت الدجاجة، وهي تصوت حاضنة بيضها. تماماً كما تقول: أقرَّ فلان بكذا، والمصدر: الإقرار. ونقول: قرَّر فلان أن يفعل كذا وكذا. والمصدر: التقرير. ويأتي (التقرير) مصدراً واسماً، وجمعه (تقارير).. مثل التقارير الصحفية، وغير الصحفية (!) وتقارير الأخبار والتحقيقات الإذاعية.. وكله كلام!

وقد سميت الجرة «قارورة» لأنها تقرقر بالماء ينصبُّ فيها أو منها.. قرْ قرْ قرْ قرْ. وهذا يبين أن ارتفاع الصوت هو الأصل في كل ما اشتق من مادة «ق ر». وهذه هي المحاكاة للطبيعة التي يرى ابن جني ـ رحمه الله ـ أنها أصل نشأة كلام الإنسان.

* * *

هذه «المحاكاة» لأصوات الطبيعة تجعل مادة «ق ر» غير خاصة باللغة (الكلدانية) اشتقت منها العربية «قرأ» كما ذهب

الأستاذ النيهوم. بل هي تكاد تكون عامة في لغات البشر، في بعضها لا تزال حية وفي غيرها ماتت أو أُهملت أو استبدلت بمادة أخرى. من ذلك مثلاً ما نعرفه في اللغة الإنكليزية cry (كْرَايْ) والفرنسية crier (كْرِيِي) بمعنى: صاح، صرخ. وهي من اللاتينية quiri-tare و quirito التي يقول معجمها الاشتقاقي إنها «دون شك صوت محاكاة». وهذا ما نجده في الألمانية schreien والإيطالية grido والأسبانية grito والسويدية (skrika) (= s. kri. ka) إلى آخره.



وظاهرة تعاقب الحروف والأصوات، أو تبادلهما، ظاهرة مسلَّم بها بين اللغات وفي اللغة الواحدة. وكما أن الذال المعجمة في (ذكر) أبدلت زاياً وسيناً وصاداً وظل المعنى واحداً، فإن القاف في الجذر الثنائي (ق ر) تبدل كافاً (ك ر) لقرب مخرج الصوت، والمعنى واحد. فأنت تقول: قرقرة الصبي، أي ضحكه العالي، كما تقول: كركرة الصبي، بنفس المعنى. وقد رأينا ما قابل القاف في (قر) في اللغات الأوروبية k, c, q, g وهي حروف حلقية. وعليه فإن (ق ر) هذه تصير (خ ر) بتعاقب القاف والخاء في العربية، كما جاء في مادة (خور) ـ ثلاثي (خر): خار، يخور، خَوْراً، وخُواراً = صاح. ومن ذلك ما جاء في القرآن الكريم عند حديثه عن بني إسرائيل وعبادتهم

العِجْل: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ [الأعراف: 148] أي له صوت.

من هذا الجذر (خ ر) نجد في اللغة الإنكليزية chorus, choir = فريق من المنشدين أو المرتلين في الكنيسة. وفي اللغات الأخرى: الفرنسية choer والألمانية chor والإيطالية coro وكذلك الإسبانية coro والسويدية kör.. الخ. وتتفق معاجم الفرنجة على أن أصل هذه الكلمات ـ ومشتقاتها ـ يعود إلى اليونانية chor(us) بمعنى: المرتل، المنشد، المغني، المترنم، بعدئذ. وقد «عرَّبناها» نحن إلى «كورس»، ومنها «الكورال» في (فرقة كورال الأطفال) بالقاهرة مثلاً. ولا جدال في صلة اليونانية «خور(س)» بالعربية (خور): خار، يخور = صاح، يصيح.



هذا يجرنا إلى لقب كهنوتي شهير عند إخواننا نصارى المشرق: «الخُوري». وقد تحول إلى اسم عائلة، أو عائلات، منها أعلام مشهورون في عوالم السياسة والأدب والصحافة في بلاد الشام. ويقول طوبيا العنيسي في كتيبه (تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية) إن هذه الكلمة مقتطعة من اليونانية «خوريبيسكوبوس» بمعنى «أسقف القرية»، من «خورا» بمعنى:

قرية، و«بيسكوبوس» بمعنى: أسقف. ولا ننسى أن اليونانية «خورا» جذرها «خ ر» والخاء المعجمة مبدلة من القاف في «ق ر» وهو نفس الجذر الذي منه العربية «قرية». فإن كان قول طوبيا العنيسي صحيحاً فينبغي الانتباه إلى اسم الشاعر اللبناني «رشيد الخُورِي» الملقب بالشاعر «القَرَوِي»، فإن «الخوري» و «القروي» في هذه الحال مشتقان من جذر واحد.

لكن هل يمتنع أن يكون لقب «الخوري» مشتقاً من «خور» بمعنى صاح، وفي اليونانية «خورس» وهي الكلمة التي تطلق على المرتلين ومكانهم بقرب المذبح في الكنيسة، وعلى الترتيل نفسه، كما يقول العنيسي؟ وقد يكون «الخوري» رئيس المرتلين أو «الخَوَّارين» نسبة إلى «الخُوار» بمعنى الصياح، الإنشاد، الترتيل. جائز.



وقد نسترسل في مسألة الإبدال هذه، فنذكر بإيجاز أن القاف في الجذر (ق ر) تبدل جيماً فتكون «ج ر» ومنها: جأر = صاح، زعق. (ثلاثي «ج ر»). ومن الثلاثي الآخر (ج ر ر): الجرة، سميت كذلك لأن الماء يجرجر (= يقرقر، يكركر) فيها. في الإنكليزية jar وفي الفرنسية jarre كما تبدل القاف غيناً (غ ر) فنجد: غرغر. غرغرة الموت = حشرجة صوت النفس

عند الوفاة. وغرغرة الماء: صوته في الحلق. الإنكليزية gurgle وهكذا وهكذا.

* * *

فلنعد إلى «قرأ».

إن الكلمة معناها: أعلن وجاهر ونادى وبلَّغ ـ كما يقول الأستاذ النيهوم نقلاً عن اللسان (الكلداني). وقد تبين عدم تحددها بهذا اللسان وحده فيما أرى.

حسن. لقد وددت لو أن الكاتب انتبه إلى تركيب الآية الكريمة، ليزيد قوله وضوحاً. فهي تقول: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وكلمة «اقرأ» هنا فعل لازم، أي لا يحتاج إلى مفعول، بمعنى: صِحْ، ارفع صوتك، باسم ربك الذي خلق. فلو كان بمعنى قراءة المكتوب، أو المحفوظ، أي تلاوتهما، لكان التركيب «اقرأ اسمَ ربِّك» لأن الفعل في هذه الحالة يكون متعدياً لا بد له من مفعول، فنحن نقول في العربية الفصيحة: اقرأ الكتابَ، أو: اقرأ الرسالةَ، أو: اقرأ الصحيفةَ، عن المكتوب، كما نقول: اقرأ قصيدةً أو شعراً، عن المحفوظ. ولا نقول: اقرأ بالكتاب، أو بالرسالة أو بالصحيفة، ولا: اقرأ بالقصيدة أو بالشعر.

* * *

من الثابت إذن أن كلمة «اقرأ» تعني: صِحْ، نادِ، ارفع صوتك، كنايةً عن الإعلان باسم الخالق «ربك الذي خلق» والجهر بالدعوة إليه وحده ـ سبحانه ـ باعتباره الرب أو الإله الواحد، لا شريك له في الخلق ولا معبود سواه، الذي ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾. وهي تكررت بهذا المعنى في الآية التالية ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾. وهو تكرار فيه حث على تبليغ الرسالة، وأمر بالشروع في الدعوة، والإعلان عنها للبشر كافة. ولكنها ليست مأخوذة عن الكلدانية، لأنها ـ ببساطة ـ عروبية مشتركة.

* * *

فماذا عن «الأُمِّي»؟

(2) الأُمِّي

يقول الصادق النيهوم:

«والثابت أن القصة المتداولة في كتب التفسير هي مجرد محاولة جاءت في وقت لاحق لتمرير الفكرة القائلة بأن الرسول محمداً كان (أُمِّيًا) بمعنى أنه لم يكن يعرف القراءة، وهي فكرة ولدت أساساً لتفسير قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ ـ الآية: 157. لكن التفسير نفسه هو مجرد خطأ ناجم عن سوء التفسير. فكلمة (أمي) لا تعني

(غير المتعلم) إلا في قاموس رجل جاهل حقاً. إنها مصطلح توراتي مشتق من كلمة (أ و م ت ي ا) بمعنى (أُمَمِي) أي غير تابع لأهل الكتاب من اليهود بالذات. وهو المعنى الذي تبناه القرآن حرفياً في آيات منها قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ ـ الآية: 20. فالأمي في لغة التوراة ليس هو (غير المتعلم) بل هو (غير اليهودي)... لهذا السبب يقول القرآن في سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ـ الآية: 2. فالعرب لم يكونوا في ضلال مبين لأنهم كانوا لا يعرفون القراءة، بل، لأنهم كانوا لا يملكون شريعة. (انتهى النص).



ولست أدري مبعث هذا الهوى بإرجاع كل شيء إما إلى (الكلدانية) أو إلى (التوراة) اليهودية. ولعل السر يكمن في أن الأستاذ النيهوم لا يكلف نفسه عناء الرجوع إلى لغات عروبية أخرى للمقارنة، أو يتعمق في البحث في الجذور العربية ذاتها، فيكتفي بالكلدانية والتوراة. وهذا منزلق خطير له نتائجه الأخطر، علماً وفكراً، على كل حال.

أحب هنا أن أصحح معلومة شائعة رددها الأستاذ النيهوم،

وهي أن كلمة «أُمّي» مشتقة من المصطلح التوراتي (أ و م ت ي ا) بمعنى «أُمَمي» ـ وهي صيغة نسبة إلى الجمع «أُمَم» ـ أي غير تابع لأهل الكتاب من اليهود بالذات. ذلك لأن تعبير القرآن الكريم بـ«أهل الكتاب» لا يخص اليهود وحدهم بل يعني النصارى كذلك: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: 64]. والمقصود هنا النصارى الذين أشركوا المسيح عيسى ابن مريم مع الله باعتباره ابناً له يُعبد مثله. وجمع القرآن بين اليهود والنصارى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: 68] ـ فجعل اليهود (أتباع التوراة) والنصارى (أتباع الإنجيل) أهل الكتاب معاً.

هذه نقطة. والنقطة الثانية تذهب إلى أن تعبير «الأمم» (جمع أُمّة ـ في الترجمة العربية، وهي في العبرية «أوميم») تعني فعلاً غير اليهود، أو غير العبرانيين كما يعبر (قاموس الكتاب المقدس)، ولكنها لا تشمل جميع الأمم، بل تعني «العرب» بالذات. وهذا ما سنناقشه فيما بعد. أما التعبير على سبيل التعميم عن الشعوب الأخرى فهو في العبرية «قُويِيمْ»، والقاف تنطق معقودة كنطق الليبيين لها أو كنطق المصريين لحرف الجيم. وهي جمع «قُوْيْ» التي قارنها الأستاذ ربحي كمال في (المعجم الحديث عبري ـ عربي) بالعربية «غوي» ومنها:

الغاوي والغَوِيُّ = المنقاد للهوى، الضالّ. وأرى أنها تكافىء العربية «قَوِيَ» ومنها: القَوِيُّ = الشديد. ذلك لأن العبرانيين كانوا يخشون قوة أهل البلاد الأصليين من العرب الكنعانيين واليبوسيين الذين أسماهم اليهود «عناقيم» (= الأقوياء) وعرفناهم نحن باسم «العماليق» (العمالقة): ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: 22] كما هو التعبير القرآني. ويبدو لي أن كلمة (قوييم) هي التي نجدها في العربية في صورة «قَوْم»، ومن الواضح أنها صيغة جمع بالميم يبدو جمعها بيِّناً عند الخطاب. وهي ترددت في القرآن الكريم مائتين وستين مرة في صورة (القوم) وسبعاً وأربعين مرة في صورة (قوم) وأربعين مرة (قوماً) وإحدى عشر مرة (قومك) وستًّا وخمسين مرة (قومه) إلى جانب إضافات أخرى إلى الضمائر (قومكما)، (قومنا)، (قومها)، (قومهم)، (قومهما)، (قومي). وكلها يصرف الفعل معها تصريف الجمع. والجمع بالميم ليس خاصاً بالعبرية، بل هو شائع في العربية الجنوبية (لغة سبأ). أما صيغة (الأقوام) فليست جمعاً لـ«قوم» بل هي ما يُعرف بجمع الجمع في العربية.

* * *

إنني أعتقد أن ثمة خلطاً في فهم كلمة «أُمِّي» وجمعها «أُمِّيِّين» التي وردت في القرآن، وهو خلط نشأ عن أن كلمة معينة وردت في صيغة معينة فهمت باعتبارها مشتقة من مصدر

واحد معين. وعلى هذا الأساس دارت مناقشات طويلة منذ مدة مديدة، مبني كل منها على تصور المصدر الواحد لهذه الكلمة. وهذا هو في رأيي موطن الخطأ. فكلمة «أُمّي» ـ وجمعها (أُمّيون) ـ ليست ذات معنى واحد محدد، وإنما هي ذات معنيين مختلفين تماماً، صدرا عن مصدرين بعيدين كل منهما عن الآخر، وبهذا يمكننا إدراك المعنى الحقيقي للكلمة في النص القرآني من جهة، وفي استعمالها العام الشائع من جهة أخرى. وهذا في حاجة إلى بيان وتفصيل.



ورد وصف النبي (ص) في القرآن الكريم مرتين بالنبي الأُمّي (الأعراف: 157 و158). في الآية الأولى يخاطب الله ـ سبحانه ـ موسى حين غضب على بني إسرائيل لاتخاذهم العجل معبوداً لهم في غيبته، فألقى الألواح. فلما سكت عنه الغضب أخذها ثانية، مع بعض أتباعه، وشرع يضرع إلى الله أن يرحمه ويرحمهم. وكان جواب الباري، عز وجل: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾. ثم يؤمر النبي (ص): ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي

لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾.

من الآية الأولى يمكن أن نفهم أن المتقين من بني إسرائيل، وممن تنصر منهم بعد بعثة عيسى (ع)، يعرفون من التوراة والإنجيل أن نبيًّا أُمِّيًّا سيظهر فيتبعونه. والإشارة هنا إلى ما ورد في القرآن الكريم أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6]. وصيغة «أحمد» في اسم الرسول الذي بشر به عيسى (ع) مشتقة من الجذر (ح م د) وهو نفس الجذر الذي اشتق منه اسم «محمد». ونحن نعلم أن هذا الاسم أُطلق على كثيرين من العرب قبل النبي (ص)، وتقول الروايات إن بعض العرب كانوا ينتظرون ظهور نبي في الجزيرة العربية يسمى «محمداً» (أو «أحمد») ويتمنون أن يكون أحد أبنائهم فأكثروا من إطلاق هذا الاسم. وهذا ما فعله عبد المطلب، جد النبي (ص)، حين أطلق على حفيده اسم «محمد» أملاً في تحقيق ما بشر به عيسى (ع).. وقد تحققت البشارة. ونفهم من الآية الثانية أن الرسول الكريم مرسل إلى الناس جميعاً وليس مبعوثاً خاصاً إلى شعب بعينه أو طائفة بذاتها من البشر ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾.



في ثلاث آيات أخرى نجد ذكر (الأُمِّيِّين): ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران: 20]. ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: 75]. وهنا نجد (الأُمِّيِّين) في مقابل (أهل الكتاب). ثم نقرأ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: 2] دون ذكر لأهل الكتاب الذين يقصد بهم اليهود والنصارى، فقد أصبح هؤلاء (الأمّيون) أنفسهم (أهل الكتاب) إذ تستمر الآية: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. وقد وصف القرآن الكريم بأنه (الكتاب) عديد المرات: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: 47]. ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: 1 ـ 3]. ﴿حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: 1 و2]. ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: 3] وآيات أخرى كثيرة عن القرآن باعتباره كتاباً أو بالتعريف (الكتاب). ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وليس للجهلة الذين لا يعرفون القراءة والكتابة. بل إن الآية الأولى من السورة الأولى (بعد الفاتحة) في المصحف الشريف تبدأ: ﴿الم * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 1 و2]. وقد وردت «كتاب» ـ معرفة ونكرة، مفردة وجمعاً، أو مضافة ـ حوالي مائتين وستين مرة، وكلها بمعاني:

المكتوب، المسطور، المسجل. ولا تعني «الكتابة» كما فسرت في معاجم اللغة وعند عامة المفسرين.

هناك إذن نبي أُمّي، لا ينتمي إلى بني إسرائيل، مرسل إلى الناس جميعاً، بعث في الأُمّيين الذين قوبلت تسميتهم بـ«أهل الكتاب» أي التوراة والإنجيل، وليس «أهل الكتابة». وهؤلاء «الأميون» أنفسهم صاروا «أهل كتاب» بل «أهل الكتاب». . بنزول القرآن الكريم.

فمن أين جاءت فكرة الربط بين **«الأُمّي»** و **«الأُمّيين»** من جهة و**«الجهل بالكتابة»** من جهة أخرى؟

لعلها جاءت من آية أخرى في سورة البقرة تقول: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ الآية: 78. وهي وردت بعد تقريع بني إسرائيل: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 44]، وبعد ذكر ما جابهوا به موسى من عناد وعناء، وهو الذي ﴿أُوتِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾، وبعد انقطاع الأمل في أن يتبعوا النبي الأُمّي: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 75]. وقد نستخلص من ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أحد أمرين: **إما أن الوصف (أُميون) مقصود به بعض العرب الذين تهوّدوا، وهم ليسوا من العبرانيين، أو ليسوا من بني إسرائيل، فهم لا يعرفون اللغة**

العبرية المكتوبة بها التوراة، وإن كانوا يتمنون ذلك. أو أن خلطا لغوياً حدث في فهم (أمي/ أميين) للدلالة على قوم غير العبرانيين، أو غير اليهود، أو غير بني إسرائيل (والصفات الثلاث اختلفت باختلاف مراحل التاريخ) من جهة، والدلالة على عدم معرفة الكتابة من جهة أخرى.

هذا ما أذهب إليه. وعلى ضوء ما تقدم أعرض التحليل التالي:

أ ـ الأُمِّي = العربي/ الأُمِّيون = العرب

يبين تتبع نشأة كلمة (عرب) باعتبارها صفة أطلقت على أهل شبه الجزيرة العربية أن أول تسجيل لها ظهر في النصوص الأكادية في صورة (أرب) ـ بالهمزة بدلاً من العين. وهذه نقطة مهمة لأن الهمزة والعين تتبادلان كثيراً في مختلف لغات الوطن العربي قديماً، بل وفي بعض لهجات العربية العدنانية ذاتها. فبنو تميم مثلاً يقولون في لهجتهم «لأَنَّك» و«لَعَنَّك» بمعنى «لَعَلَّك». كما يقال «أن» بمعنى «عن» و«عَنِّي» بمعنى «أَنِّي». وهذا ما يعرف بالعنعنة، أي إبدال الهمزة عيناً. أما إبدال العين همزة فنجده في مثل قولهم «أُباب» بدلاً من «عُباب» وقولهم «استأديت الأمير على فلان» بدلاً من «استعديت»، و«الكثأة» بدلاً من «الكثعة» (وهو الدسم والخثورة تعلو اللبن)، و«زؤاف» بدلاً من «زعاف» (القتل السريع)، و«صبأ» بدلاً من «صبع».

ويقال يومٍ «أَكٌّ» بدلاً من «عَكٌّ» (أي شديد الحر)، و«السأف» بدلاً من «السعف». . إلى آخره. وهو كثير تتداوله المؤلفات الخاصة بدراسة اللهجات العربية القديمة (انظر مثلاً: **لهجات العرب**، لأحمد تيمور، و **اللهجات العربية في التراث**، لأحمد علم الدين الجندي).

أما في اللغة الأكادية فإن ما يقابل العين في الكلمة العربية المكافئة نجده همزة بإطلاق. وقد فسر بعض المستشرقين هذا بأن الأكاديين أخذوا رموز الكتابة عن السومريين الذين لا ينطقون العين ولا يكتبوها. فلم يُوجِد الأكاديون رمزاً لحرف العين إذ لم يجدوه فجعلوه همزة. وهذا غير ضروري، فإن بعض عرب مصر (القاهرة خاصة) ينطقون كل جيم قافاً معقودة وكل قاف ألفاً مهموزة أو همزة، مع الاحتفاظ برسم الجيم والقاف. وعليه فإن الواجب أن يُقرأ رمز الهمزة في النصوص الأكادية همزةً إذا كان المكافىء في العربية كذلك وأن يقرأ عيناً إذا كان الحرف في المكافىء العربي عيناً. وعلى كل حال فقد ورد في النصوص الأكادية صيغ: أُريبي، أروبو، أَربي، أُربي، أَرابو. وهذه النصوص ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد فقط، ولم يرد أي نص فيه هذه الصيغ من التسمية (أرب) قبل هذا التاريخ. أما المعنى فقد كان: أهل البداوة، البدو،

الصحراويين، الرحالة، المتنقلين ـ وخص في نص واحد قبيلة بعينها يرأسها زعيم اسمه «جنديبو» (= جندب).

أما كلمة (عرب) كما نعرفها فلم تصبح ذات مدلول جنسي/ سلالي أو قومي يشمل جماعة محددة بكل طوائفها وقبائلها إلا قبيل الإسلام بمدة قصيرة، بتبلور ما يمكن تسميته (القومية العربية) في أثناء صراع القبائل العربية ضد الفرس والروم إلى أن حققت أول انتصار عسكري كبير على (القومية الفارسية) في موقعة ذيقار عام 571ق.م. وهو سنة مولد النبي عليه الصلاة والسلام. وهي الموقعة التي «اتحدت» فيها قبائل العرب المتنافرة المتناحرة فيما بينها من قبل، أو يقاتل بعضها بعضاً لمصلحة إحدى المملكتين الكبيرتين يومذاك؛ فارس وبيزنطة ـ ووحدت قواها لمواجهة عدو خارجي واحد.. فانتصرت.

في التسجيلات اليونانية، بدءاً من هيرودوت (القرن الخامس ق.م.) عُرف أهل الجزيرة العربية باسم (العرب)، وكذلك في المصادر اللاتينية، ولكن بمعنى «البدو». وهي ـ مهما يكن الأمر ـ مصادر متأخرة نسبياً.

* * *

في التسجيلات الهيروغليفية المصرية نجد كلمة (ر ب و)

التي كانت تطلق على مجموعة القبائل المتحالفة غربي وادي النيل (ليبيا الآن). ومن الثابت أن أصل الكلمة هو (أ ر ب و) بهمزة في أولها، وهي التي سقطت في مرحلة لاحقة من كلمات كثيرة في اللغة المصرية القديمة كانت موجودة فيها في مرحلة سابقة. وهي ذات الكلمة التي أبدلت راؤها لاماً في اللسان اليوناني (لبو) ونطقت «لوبو» (أو «ليبو») lybu. وانتقلت إلى اللغة العربية فوردت في (التوراة) في صيغة الجمع «لُوبِيم» ومزيدة هاء «لِهُوبِيم» بمعنى «الليبيون» أو «اللوبيون» نسبة إلى (ليبيا) أو (لوبيا) lybia التي هي ذاتها نسبة إلى «ليبو» (لوبو) بالياء، كما في العربية «. . . يَه» (= . . . يَّة).

هذا عن تسمية (القبائل المتحدة) غربي مصر في التسجيلات المصرية القديمة. وهي قبائل بدوية، صحراوية، كما نعرف من نفس التسجيلات. بل إن «شامبوليون» ـ مكتشف قراءة الرموز الهيروغليفية ـ لم يترجم كلمة «ربو» إلى «الليبيين» ـ كما حدث فيما بعد ـ بل ترجمها إلى «البدو» في مؤلفه الشهير (مبادىء عامة للكتابة المصرية المقدسة).

أما القبائل البدوية شرقي وادي النيل إلى البحر الأحمر وفي الجزيرة العربية فنجد تسميتهم في التسجيلات الهيروغليفية iabu (إأبو). والهمزة الثانية في هذه الكلمة مبدلة من الراء، كما يحدث كثيراً جداً في النصوص الهيروغليفية، فهي أصلاً irbu

(إربو). ولا يهم كسر الهمزة الأولى بدلاً من فتحها (أَربو) فقد وجدناها في النصوص الأكادية «أُربي» مضمومة الهمزة. والواو في آخر الكلمة المصرية (إِربو) ـ كما هي في (ربو) = (أَربو) ـ علامة الجمع، كما أن الواو في الأكادية للجمع أيضاً والياء للنسبة. والدلالة، في جميع الأحوال واضحة: «عَرَب» ـ بفتح العين والراء، أو «عُرْب» بضم العين وتسكين الراء. فكأن المصريين القدماء أطلقوا كلمة (عرب) ـ أي البدو غير ساكني المدن أو غير المستقرين ـ على من كان غير «مصري» (أي غير ساكن «المصر» = المدينة) غرباً وشرقاً على حد سواء.. وقد أصابوا.



بيد أن التسجيلات الهيروغليفية تحوي تسمية أخرى أطلقت على عرب الصَّحْرَاوَيْن الشرقية والغربية، كما أطلقت على عرب الجزيرة هي (أمو). فقد كان أهل واحة سيوة، وهم بدو، يسمَّون في هذه التسجيلات (أمو)، كما كان أهل الصحراء الشرقية (في مصر) والجزيرة العربية يسمَّون (أمو) كذلك. وفي التسجيلات أخرى نجدها (عمو) بالعين بدلاً من الهمزة. وهذا بالضبط ما حدث لكلمة (أرب) التي هي ذاتها (عرب). فما هو معنى (أمو) أو (عمو)؟

إن الواو في آخر الكلمة علامة الجمع، وهي ذات علامة

الجمع في السبئية (اليمنية القديمة) والعربية الشمالية القديمة، ونعرفها في الفعل الماضي المسند إلى جمع المذكر. (كتبوا، قرأوا) وفي جمع المذكر المضاف (كاتبو الصحف، قارئو الصحف) وفي الفعل المضارع المسند إلى جمع المذكر مجزوماً (لم يكتبوا، لم يقرأوا) أو منصوباً (لن يكتبوا، لن يقرأوا). أما الجذر فهو «أم» (= عم). والمعنى الأصلي له يفيد القوة والغلبة والطول والكثرة. وهذا ما يفيده الجذران العربيان الثلاثيان «أمم» و «عمم» ـ فإنهما يستويان في الدلالة، ولن نثقل على القارىء بإيراد شواهد لهذا ويكفيه أن يعود إليهما في المعاجم العربية.

* * *

في الأكادية ـ لغة بلاد الرافدين القديمة ـ نجد «أماتو»: قوة، جبروت، عملقة. كما نجد «أمو»: ناس، شعب. وفي الكنعانية ـ لغة ساحل الشام قديماً ـ نجد «عم»: شعب. وهذا ما يقابل المصرية القديمة «أمو»/ «عمو»، والعربية «أمم» و «عمم» ـ بالتعاقب بين الهمزة والعين في اللغات العروبية الأربع المذكورة.

* * *

من الواضح أن دلالة (أم) و (عم) تطورت من الدلالة الأصلية التي تحمل فكرة القوة إلى معنى الغلبة، ثم إلى معنى

الغالبية أو الأغلبية، أي العموم، العامة، العوام ـ أو شعب الصحراء، البدو، غرباً وشرقاً من وادي النيل، وجنوب بلاد الشام، أي: العرب، البدو.

من جهة أخرى وضعت علامة الجمع في الكنعانية وهي الميم (. . . يم) كما هي في السبئية (انتقلت بعد ذلك إلى ما يسمى «العبرية» وهي أصلاً لهجة كنعانية، وتسمى في التوراة ذاتها «الشون كنعان» أي: لسان/ لغة كنعان) وضعت هذه العلامة بدلاً من واو الجماعة فكانت «أَميم» وضُمَّت الهمزة (قارن: عَرَب، عُرْب) فصارت «أُوميم». أما في العربية الشمالية (العدنانية) فقد تطورت علامة الجمع لتصير بالنون بدلاً من الميم (وهما يتبادلان كثيراً) مع إضافة ياء النسبة والإعراب الذي احتفظت به دون غيرها من اللغات العروبية المتطورة، فكانت «أُمّيُّون»/ «أُمّيِّين».

فالمعنى الأصلي إذن للصيغة المنسوبة «أُمّي» هو: «العربي» ـ بأية دلالة من الدلالات الأولى: القوي، الطويل، الغالب، وحتى: العملاق. (ولا ننسى أن فريقاً ممّن يسمون في المصادر العربية القديمة: العرب البائدة، يدعون كذلك: العماليق، أو العمالقة. وهم الذين هاجروا من الجزيرة إلى أرض فلسطين وعمروها وسكنوها منذ آلاف السنين، ومن المؤكد أن فريقاً منهم هاجر إلى وادي النيل واستقر في الناحية الشرقية منه). ثم

تتلو الدلالة الأخرى: الكثير، الأغلب، العام.. الخ. ودلالة ثالثة: البدوي، ساكن الصحراء، بالتحديد: ساكن البادية. (بالمناسبة: صفة «البدوي» نسبة إلى «البادية» مشتقة من الجذر (بدا) الذي يعني: ظهر، برز، كشف. ولا صلة لها بالصفة «بدائي» التي هي من الجذر (بدأ) ومنه: البداية، الأولية، الطور الأول من كل شيء).



خلاصة القول: الأُمّي = العربي. الأُمّيون = العرب.

وانطلاقاً من هذا تُفْهم صفة «**النبي الأُمّي**» في القرآن الكريم بمعنى «**النبي العربي**» ـ غير العبراني. ويفهم وصف «**الأُميين**» باعتباره يعني «**العرب**» ـ سكان شبه الجزيرة العربية/ الحجاز ونَجْد وما حولهما. وهي تسمية كانت تطلق، في مختلف الصور التي رأيناها، على العرب الرحّل، البدو، ثم ظلت كذلك بعد أن استقروا، أو استقر بعضهم، في المدن، مثل مكة، ويثرب والطائف وغيرها. تماماً كما أن كلمة (عرب) تفيد البداوة أصلاً ويعرف بها الآن جميع العرب، والأغلبية الكبيرة منهم مستقرة في أحدث المدن يستعملون آخر المخترعات المتمدينة.. **ويظلون عرباً.**

ملاحظة جانبية:

لم تستعمل في القرآن الكريم كلمة (عرب) للدلالة على

البداوة، بل استعملت كلمة «أعراب». ومع أن الجذر الأصلي واحد فقد تطورت الدلالة لتخص البدو بكلمة «أعراب». أما الصفة (عربي) فقد خصت وصف القرآن الكريم في مثل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: 195] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: 37] وغيرهما من الآيات. والذي أراه أن الصفة (عربي) هنا لا تفيد النسبة إلى (عرب) بالمعنى السلالي أو القومي، بل تعني: الواضح، الجلي، البادي، غير الخفي أو غير الغامض، بدليل ورود الصفة «مبين» بعد الصفة «عربي».

ولم ترد كلمة (عرب) في دلالتها على جماعة أو قوم في الشعر الجاهلي برمته (وهو ديوان العرب) إلا في بيت واحد.. حسبما أعلم.

وهذا ما يؤكد ما ذكرته من أن «العرب» كانوا يُسَمَّوْنَ «الأُميين» ـ بالمعنى السلالي أو القومي، وقد تنوسيت، أو أهملت التسمية القديمة (الأميين) لأسباب لا أدريها وحلت محلها تسمية (العرب). لكنها ظلت في القرآن الكريم بذات الدلالة التي أفضت في تأثيلها.

* * *

ب ـ الأُمي = من لا يعرف الكتابة

في (لسان العرب) لابن منظور: «الأُمِّي: الذي لا يكتب... الذي على خِلْقة الأُمة لم يتعلم الكتاب فهو على

جِبِلَّته... المنسوب إلى ما جَبَلَتْه عليه أمه أي لا يكتب... قيل للعرب: الأميّون، لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة... والأُمّي العَيِيُّ الجلف القليل الكلام... وقيل لسيدنا محمد (ص) الأمي لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب، وبعثه الله رسولاً وهو لا يكتب ولا يقرأ المكتوب» (مادة: أمم).

وهو نص طويل فيه من الخلط الشيء الكثير، ومجافٍ للحقيقة التاريخية. ومرجع هذا اعتبار (أُمِّية) النبي (ص) ـ أي عدم معرفته الكتابة والقراءة ـ إحدى معجزاته. ولا أود الخوض في هذا الموضوع البالغ الحساسية، فقد ناقشه كثيرون من قبل وهو ليس الغاية، إذ أن الهدف من هذه الدراسة لغوي صرف. لكن لا بد من إبداء بعض الملاحظات على ما اقتبسته من نص ابن منظور.. على الأقل.



من جملة هذه الملاحظات أن تفسير أصل (الأُمي) بأنها نسبة إلى «الأم» (الوالدة) تفسير متعسف. إذ لِمَ لَمْ يُنسب إلى «الأب» أيضاً، وهو كذلك لا يكتب ولا يقرأ؟ ثم إن وصف العرب بأنهم أُمّيون «لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة» غير صحيح؛ فقد كانت الكتابة والقراءة منتشرة ـ بالنسبة لذلك الزمان ـ بين العرب، وكان من عادتهم كتابة (المعلقات) بماء

الذهب وتعليقها على الكعبة (ومن هنا جاءت تسميتها) ليقرأها الناس، ولا يمكن أن يحدث هذا في مجتمع فيه الكتابة «عزيزة أو عديمة». وكان للنبي (ص) كُتَّاب وحي كثيرون بلغ عددهم، في بعض الروايات، اثني عشر كاتباً مختارين بدقة، معروفة أسماؤهم، كما لم يكن واحد من الخلفاء الراشدين يجهل القراءة والكتابة (تقول الروايات إن عثمان بن عفان (ض) قتل وهو يتلو آيات القرآن الكريم من مصحف أمامه) بل كانت المرأة عارفة بالقراءة والكتابة (تقول الرواية إن سبب إسلام عمر بن الخطاب أنه وجد أخته تقرأ آيات قرآنية من صحيفة، فهمَّ بضربها، فدفعتها إليه ليقرأها فيدخل نور الإيمان قلبه ويسلم). ولا ننسى أن النبي، عليه السلام، وعد أي أسير من أسرى قريش في معركة بدر يعلم عشرة من مسلمي المدينة الكتابة بإطلاق سراحه. وهذا يعني أنه كان في هؤلاء الأسرى عدد كبير عارف بالكتابة. إلى آخر ما يمكن إيراده في هذا الباب. فالقول بأن الكتابة والقراءة عند العرب كانت «عزيزة أو عديمة» قول باطل من أساسه.

أما الملاحظة الثالثة فتكمن في تعريف (الأُمّي) بأنه «العَيِيُّ الجلف الجافي القليل الكلام». ومن الغريب فعلاً هذا التعريف مع وصف النبي (ص) بأنه «الأُمّي» وهو كان ـ عليه السلام ـ الطلق اللسان، الفصيح البيان، العظيم الخلق، الذي لم يكن

فظاً غليظ القلب، وبعث «ليتمم مكارم الأخلاق» ـ كما يروى عنه. وقد كان العرب ـ حتى في (جاهليتهم) ـ ذوي خُلُق كريم، تميزوا بالوفاء والجود والنجدة والنخوة والرجولة والمروءة والغيرة والحمية، وحماية المستجير، والذود عن العرض، والإباء والاعتزاز بالكرامة، كما امتازوا باللغة الراقية المعبِّرة بدقة كاملة عن كل غرض، شعراً وخطابةً ونثراً وحديثاً. فلما نزل القرآن الكريم، وهو في أكمل صورة من صور بيان اللغة العربية، لم يجدوا عسراً في فهم آياته أو عناء في استيعاب ألفاظه ومفرداته وتركيباته المختلفة، ووجد بعض المشركين، مع شركه، إِعجاباً به حين سمعه يُتْلَى، لأنه أدرك بإحساسه اللغوي المرهف الراقي طلاوة ما فيه من تعبير وحلاوة ما يحويه من لفظ. فكيف يكون «الأُمِّيون» (= العرب، حسب تعريف ابن منظور نفسه) أجلافاً جفاة على عِيٍّ وهم من رأينا؟



ثمة إذن خلط لغوي أشرت إليه من قبل. خلط ما بين كلمة «أُمِّي» بمعنى (العربي) ـ وقد بينت أمرها ـ وكلمة «أُمِّي» بمعنى من يجهل القراءة والكتابة. لكن قبل أن أشرع في متابعة المسألة أود الإشارة إلى أن تعريف ابن منظور الأول للأُمِّي هو «الذي لا يكتب. . . لم يتعلم الكتابة. . . قيل للعرب (أميون) لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة». ولم يربط بين الأُمِّي والجهل بالقراءة، مع

جهله بالكتابة، إلا عند حديثه عن النبي (ص). وهذا بمعنى أن (الأمية) تعني الجهل بالكتابة أصلاً، وليس الجهل بالقراءة. فقد يمكن للمرء أن يتعلم القراءة دون أن يعرف الكتابة (وهذا ما نراه كثيراً جداً) كما أن معنى الكتابة مختلف عن معنى القراءة. . وقد بينت شأنها في ما سبق.

فما هو هذا الخلط، وما الذي نتج عنه؟ فلنحاول الإجابة عن هذا السؤال.

قلت إن خلطاً وقع، وهناك خطأ ما حدث في ازدواج معنى «الأُمي». وقد أطلت في شرح المعنى الأول (= العربي) وأحسب أنه اتضح. أما دلالة الجهل بالكتابة فإني أميل إلى أنها دخيلة من لغة أخرى، هي في رأيي اللغة اليونانية. إذ من المعروف أن مفردات كثيرة دخلت عربية الحجاز من هذه اللغة، نتيجة الاتصال التجاري أو الديني أو الاحتكاك الحضاري بصفة عامة، إما عن طريق الفارسية التي أخذت الكثير عن اليونانية، أو عن طريق اللغة العروبية السريانية لاشتراك العرب السريان واليونانيين في اتباع الديانة النصرانية. لكن هذه المفردات اليونانية نفسها كان اليونانيون نقلوها من قبل عن الشعوب العروبية الأخرى من مصريين وبابليين وكنعانيين وليبيين (وهذه نقطة سوف تتضح فيما بعد). فلما دخلت اللسان اليوناني اعوجَّت، بشكل أو بآخر، وإذ «اقتبسها» العرب السريان

وانتقلت إلى عرب الحجاز حسبت أجنبية لدخول العجمة عليها ونسيان تاريخها وأصلها العروبي القديم.

فلأحاول توضيح هذا القول.

في اليونانية هذه الكلمات:

amathia (أَمَثِيَا): جهل، عدم معرفة القراءة والكتابة.

amathis (أَمَثِيسْ): جاهل، لا يعرف القراءة والكتابة.

amathitos (أَمَثِيتُوسْ): غير متعلم، غير مدرب.

وهذه الكلمات الثلاث جذرها «أَ ـ مَثْ» a-math وبقية الحروف زوائد، ومنها الاسم (أَمَثِيَا) الذي يعني الجهل بالقراءة والكتابة. أليس مقبولاً أن تنتقل هذه الكلمة إلى العربية بتاء مثناة (أمتيا) ثم تسقط هذه التاء فتكون «أميا»، وما أيسر أن تتحول إلى «أُمِّيَّة»؟ ويدعم هذا أن المقطع (يا) في آخر الكلمة اليونانية يطابق دائماً ياء النسبة + تاء التأنيث (. . . ية) في العربية، في مثل نقلنا كلمة demokratia في صورة «ديمقراطيَّة» وكان المفروض أن تكون «ديموكراتيا» أو «ديموقراطيا».

فليس صواباً إذن ما ذهب إليه الأستاذ الصادق النيهوم من أن كلمة «أُمِّي» مصطلح توراتي مشتق من كلمة (ا و م ت ي ا) بمعنى «أُمَمي» أي غير تابع لأهل الكتاب من اليهود بالذات.

ذلك لأن هذا (المصطلح التوراتي) نفسه (ا و م ت ي ا) مأخوذ عن اليونانية «أمثيا» بمعنى جاهل القراءة والكتابة هنا، وليس بمعنى الأممي. وهو الذي صار في صياغته العربية (أُمِّيَّة).

* * *

وقد ذكرت أن اليونانيين نقلوا كثيراً من مفردات لغتهم عن الشعوب العروبية القديمة. فهل نقلوا هذه المفردة أيضاً وما أصل هذه «الأَمَثِيَا»؟

هنا لا مناص من اللجوء إلى شيء من التحليل والمقارنة اللغويين قد يجد فيهما القارىء شيئاً من التعقيد في البداية، ولكن الأمر سينجلي له لو أطاق معي صبراً. فلنتقدم خطوة خطوة.. بعون الله!

* * *

كلمة «أَمَثِيَا» اليونانية هذه مكونة، في الواقع، من مقطعين اثنين: (أ) ويفيد النفي، ويقابل العربية (لا)، (غير). ويأتي في كلمات كثيرة نكتفي بمثل واحد لها هو كلمة «أَتُمْ» atom في اليونانية التي تعني «الذَّرَّة» ومنها في الإنكليزية atomic bomb (القنبلة الذرية). ويعبر في الفلسفة الإسلامية عن الذرة بأنها «الجزء الذي لا يتجزأ» ـ باعتبارها أساس تكوين الوجود. وفيها

مباحث طويلة جداً، قبل أن تشطر الذرة أواسط القرن العشرين فكان من أمر القنبلة الذرية ما كان. وتعبير (الجزء الذي لا يتجزأ) أو «الذي لا ينقسم» أو «الذي لا ينشطر» ترجمة حرفية لكلمة «أَتُمْ» (أَ + تُمْ). في اليونانية (= لا + ينقسم).

إن المقطع الأول (أَ) الذي يفيد النفي في اليونانية هو بذاته المقطع (أ) الذي يفيد النفي والنهي، أي المنع، في اللغة العروبية الأكادية، وتعرفه معاجم هذه اللغة العتيقة جداً بأنه: «أداة منع». تماماً كما أن العربية «لا» = أداة نفي، نهي، أي أداة منع.

في نفس اللغة الأكادية تستوي (أَ) و (أَيْ) في الدلالة على المنع. وهذا ما نراه في العربية العدنانية في صورة «إِيَّا»: أداة منع وزجر وتحذير ونهي، تضاف إلى الضمائر. فيقال «إيَّاك والمراء/ إيّاك المراء»، «إيّاكم أن تفعلوا الشر/ إيّاكم فعل الشر» ـ أي: لا تماروا، لا تفعلوا الشر. وقد أطال ابن منظور (مادة: أيا) في سرد أقوال النحويين العرب واختلافاتهم في هذه اللفظة اختلافاً عظيماً، لكن أغلبهم قال إنها «اسم مبهم». وروى عن قطرب أن بعضهم يقول «أَيَّاك» بفتح الهمزة. فلو كان النحويون العرب على دراية باللغة الأكادية لما اختلفوا كل هذا الاختلاف. إذ لا ريب في اقتران العربية «إيا» و«أيا» بالأكادية «أي» المبتسرة إلى «أَ» في بعض النصوص. . وهي في اليونانية (أ) كذلك. . للمنع.

هذا عن المقطع الأول «أ» بمعنى «لا». أما المقطع الثاني في كلمة (أَتُمْ) atom وهو «تُمْ» tom فمعناه في اليونانية: تجزأ، انقسم، انكسر، انقطع. إننا نجده في العربية، مادة «تمم» ـ ثلاثي «تم»، ومنها: تُمَّ الشيءُ = كُسِرَ. والمُتَمُّ: المنقطع، المكسور. فإذا قلت «أَيَاتُمَّ» لتقابل اليونانية «أَتُمْ» (= الذرة atom) فإنك تنطق كَلِماً عربيًا لا ريب، بيد أنه كَلِمٌ غريب لا تستسيغه الأسماع، فلنقل: «ذرة»، أو «الجزء الذي لا يتجزأ» ونتم (= نقطع) الموضوع!

* * *

هذا ما كان من أمر المقطع الأول في كلمة (أَمَثِيَا) وهو الألف المهموزة (أَ). أما ما يكون من أمر المقطع الثاني (مَثِيَا) فإن معناه في اللغة اليونانية: عِلْم، تَعَلُّم، معرفة. ومنه مشتقات لا تكاد تقع تحت حصر، فيما يلي بعضها:

mathain (أنا أتعلم، أنا أعلم).

mathesis (تعلُّم، تعليم، تربية).

mathetarion (تلميذ صغير).

mathetia (تلمذة، تَتَلْمُذ).

mathetis (تلميذ، طالب).

mathetos (يمكن تعلُّمه).

mathetria (طالبة، تلميذة).

حتى نأتي إلى مشتق شهير جدًّا يعرفه طلبة العلوم التطبيقية mathematikos, mathematikon (حسابي، رياضي ـ نسبة إلى علم الرياضيات، أو إنسان متخصص في هذا العلم) و mathematika (علم الرياضيات).

وقد نقل العرب، وكان التراجمة في الأغلب الأعم من العرب السريان، هذه الكلمة الأخيرة إلى العربية في صورة (ماثماطيقا) في البداية، تعريباً، ثم عرفت باسم (الرياضيات) بعدئذ. ولنلاحظ الصلة بين «الرياضيات» و«الرياضة» بمعنى التدريب والتدريس، أي رياضة الذهن بمسائل حسابية معقدة.

كل هذه الكلمات/ المشتقات أصلها «مَثِيَا». والمعنى الأصلي لها هو التعلم، أو العلم، أي المعرفة، أي . . الكلمة. فإذا تذكرنا الصلة المعروفة بين ما في اليونانية «الوغو(س)» logo(s) وبين «الكلمة» و«العلم» (وفي العربية: المنطق = الكلام، الترتيب الذهني المعقول. وقارن اليونانية «الوغو(س)» بالعربية «لغة») ـ إذا تذكرنا هذه الصلة أدركنا الصلة ذاتها بين «الكلمة» و «العلم» في (مَثِيَا) أيضاً.

* * *

فأين هو الأصل العروبي لهذه الـ(مَثِيا) اليونانية الذي أزعم؟

فلنذكر أن جذر هذه الكلمة هو «م ث» بالثاء المثلثة التي تنقلب تاءً مثناة كما رأينا في المصطلح التوراتي «أ و م ت ي ا» (جذره: مت)، وكما سنرى فيما بعد. وتنقلب دالاً، كما سنرى بعد قليل. فهذه الأحرف كلها من مخرج صوت واحد، سهلة التبادل.

بعدها لا نفاجأ حين نجد في اللغة المصرية القديمة: «م د و» = كلمة، قول. «م د . ت»، «م د و . ت» = كلام، حديث. وثمة تعبير قديم شهير في المصرية هو «م د و . ن ت ر و» = كلام الآلهة، أوامر الأرباب. والصلة وثيقة جدًا بين كلام الآلهة والعلم الإلهي، باعتبار الآلهة لا تنطق إلا معرفةً وعلماً، وأوامرها أيضاً علم، تماماً كما هو حال فعل الخلق (كُنْ) الذي هو أمر وعلم في الوقت ذاته.

أما جذر كلمة «مدو» في المصرية القديمة، باعتباره فعلاً، فهو «دو»، ومنه المشتقات. فنقرأ في معجمها:

«دوي»: صاح، نادى. (العربية: «دَوَّى» = أحدث صوتاً).

«دوأت»: صرخة، صيحة. (العربية: دويّة، مؤنث «دوي»).

«دوأوت»: صوت، زئير. (العربية: دوية).

وفي لهجة عرب ليبيا والمغرب «الدوة» = الكلام. «فلان يدوي» = يتكلم. وفي ليبيا تجمع «دوة» على «دواوي».

* * *

ثم نمضي لمزيد من المقارنة إلى اللغة العروبية الأكادية، فنقرأ في معجمها:

«مودو»: عارف، عالم.

«مدو»: عرف، علم.

والجذر فيهما هو «إدو» بمعنى: عرف، علم. وهو مرتبط بالجذر العربي «دوي» كارتباط العلم بالكلمة، والمعرفة بالقراءة، وارتباط النطق بالمنطق. وتمكن الإشارة إلى العربية «دواة» وهي وعاء المحبر الذي يكتب به ويسمى «المداد». قيل إنه من (مدد) أي الذي يُمِدُّ، أي (يزوِّد) بالعلم، بالمعرفة، بالكلام الذي يكتب فيقرأ.

هكذا إذن تعود اليونانية «مَيثِيَا» (في جذرها «مث») إلى العروبية في الجذر «مد» ـ بتعاقب الثاء المثلثة والدال ـ بمعنى العلم، المعرفة. فإذا أُسبقت بالهمزة «أ» النافية، وقد مضى بيانها، تقابل العربية المهملة «أيّا» والعربية المستعملة «لا»، عنت اللاعلم، اللامعرفة، أي: الجهل (أَمَثِيَا). وهي التي

تحولت في العربية إلى «أُمّية»، محتفظة بهمزة النفي الأصلية مضمومة، ومسقطة الثاء المثلثة في «أمثيا». ومنها «الأُمّي» = الذي لا يعرف الكتابة ـ في اليونانية: «أمثي(س)» amathi(s) أو «أمثي(توس)» amathi(tos).

* * *

هل اتضحت الصورة الآن؟

فلنلخص ما سبق إذن:

لصفة النسبة «أُمّي» معنيان اثنان أحدهما مشتق من تسمية العرب في المصرية القديمة (أمو) = أوميم/ أميون = العرب. فتكون صفة «النبي الأُمّي» مساوية لـ«النبي العربي». والمعنى الآخر منقول عن اليونانية (أمثيا) بمعنى «لا يكتب»، أي جاهل بالكتابة، عن طريق السريانية في الغالب. وبين المعنيين فرق في الدلالة ناشىء عن الفرق في الاشتقاقات والمصدر.

أما عن السؤال: هل كان النبي محمد (ص) يقرأ ويكتب، أم لا يعرف القراءة والكتابة؟ فهو بحث آخر، له مجال آخر، ليس هنا موطنه.

وأفضل أن يكون «النبي الأُمّي» هو «النبي العربي» لفظاً ودلالة، وأن يكون «الأُمّيون» هم «العرب» لفظاً ودلالة أيضاً.

ولقد حاولت بقدر الإمكان وما يسمح به المقام تبيان المنبع

العربي الأول لكل ما ذكرت. . وهو منبع لا ينضب عطاؤه ولا يغور ماؤه. . لو وردناه وعته صدرنا في فكرنا وتفكيرنا وبحثنا وتدبيرنا.

* * *

تعليق على موضوع ذي صلة بالموضوع:

تصدر عن الشيخ محمد متولي الشعراوي مجموعة من الكتيبات الصغيرة مسلسلة تحت عنوان (الفتاوى) توزع في المشرق والمغرب على حد سواء «تفتي» في (كل ما يهم المسلم في حياته ويومه وغده) كما هو العنوان الفرعي لها. وهي فتاوى يتحدث فيها الشيخ الشعراوي، الذي صار يدعى (إمام الدعاة) بل (الإمام) أيضاً، بلغة كسيرة الجناح مهيضة الجانب، عن كل شيء. . كل شيء. وما يهمني الآن إجابته عن سؤال يستفهم صاحبه عن الصواب أو الخطأ في استعمال الأستاذ محمود عباس العقاد تعبير (عبقرية محمد) كما استعمل (عبقرية الصدِّيق) و(عبقرية عمر) و(عبقرية خالد). . . الخ. فأجاب (الإمام) قائلاً:

«حينما كتب المرحوم عباس محمود العقاد (سلسلة العبقريات) يعلم الله أنني ذهبت إليه (كذا!) وقلت له: إن جاز أن تقول (عبقرية الصدِّيق) و(عبقرية عمر) فلا يجوز أن تطلق

على رسول الله (ص) (عبقرية محمد) ذلك لأن محمداً ليس له شيء في هذه العملية (كذا!). ومن هنا فقد أكد على (الصواب: أكد، بدون «على») أُمّيته، وتأكيده على (كذا!) أُمّيته رفعة لشأنه لأن غير الأمي قصاراه أن يأخذ من ثقافات البشر. فالله يريد أن يجعله أُمّيًا (كذا!).. أي لم يأخذ من ثقافات البشر أي أن ما جاء به ليس من ثقافات البشر وإنما من السماء!!» (إشارتا التعجب في الأصل).

ويضيف الشيخ الشعراوي قائلاً:

«والناس يظنون أنني حينما أقول (أُمّي) أني أنتقص.. لا.. أمية بالنسبة لي تعني نقصاً ولكن أمية بالنسبة له كمال (كذا)، فكل ما عنده جاء به من ربه!! (إشارتا التعجب في الأصل)... إن هناك أمة أمية.. لأن الأمة هي التي تحمل الرسالة، وتحمل نظام الحكم، ثم تنساح (كذا!) في الدنيا، لأن الأمة الأمية ليس عندها شيء، فحينما تسأل من أين جاءت بكل هذا؟ يقول لك: من السماء!!... إنها قفزة حضارية مثل القفزات التي تحدث، ولكنها حدثت في بلاد العرب، في أمة أمية... إذن فقول العقاد صحيح عن الصحابة ولكن عن الرسول (ص) غير صحيح لأن ثقافته (كذا!) ليست من البشر إنما ثقافته علوية من السماء».

(الفتاوى ـ 8، دار بو سلامة، تونس، دون تاريخ، ص15 ـ 17).

دعونا نصدِّق أن الشيخ الشعراوي ذهب يعارض الأستاذ العقاد في إطلاقه تعبير (عبقرية محمد) عنواناً لكتابه عن الرسول الكريم، فبماذا أجابه العقاد؟ ولماذا لم يكتب فضيلته آنذاك معارضاً العتوان على الأقل؟ (الكتاب صدر في الخمسينيات ولم يكن أحدٌ يومها يعرف من هو الشيخ الشعراوي ويقال إنه كان مدرساً للغة العربية في إحدى مدارس الزقازيق). وهل قرأ الشيخ الشعراوي فعلاً كتاب (عبقرية محمد) ليعترض على العنوان؟ إن الكتاب يتحدث عن محمد البشر، محمد الإنسان، وليس عن محمد الرسول، أو محمد النبي. لكننا نعرف أن الشيخ الشعراوي لا يقرأ (فقد صرح هو بنفسه للصحف بأنه لم يفتح كتاباً واحداً منذ خمسة وعشرين عاماً!!). وهو لا يكتب أيضاً، وإنما يتكلم فقط.. يقول كلاماً في أي شيء، يسجل ثم «يفرَّغ» وينشر.

ثم ما الذي يأخذه فضيلته على العنوان (عبقرية محمد)؟ ألأنَّ «محمداً ليس له شيء في هذه العملية»؟ (وهذا هو تعبيره!). أية عملية يا ترى؟ الوحي؟ وهل تطرق العقاد إلى الوحي باعتباره من آثار العبقرية؟

وما معنى أن يؤكد (الله) أمية النبي رفعة لشأنه؟ قال «لأن غير الأمي قصاراه أن يأخذ من ثقافات البشر». فما الذي يمنع

الأمي أن «يأخذ من ثقافات البشر» سماعاً وتلقيناً وحفظاً أو تحفيظاً؟ ما الذي يمنع الأمي أن يفعل هذا، أو يُفْعل به هذا، في أمة اشتهرت بحفظ الأشعار والخطب، بل وتسلسل الأنساب، عن ظهر قلب وروايتها؟ إن القول بأن النبي كان أمياً فلا يمكنه الأخذ من ثقافات البشر (والمعني: كتب الأولين ـ كما أفهم) حجة واهية جدًّا، إذ نرى كثيراً من (الأميين) أي الذين لا يعرفون القراءة والكتابة وهم ـ مع هذا ـ على دراية بكثير من المعارف.. ثقافات البشر.

قال: «الله يريد (كذا!) أن يجعله أُمِّيًا». فمن قال للشيخ الشعراوي إن الله «أراد» ذلك؟ هل جاء في القرآن الكريم ذكر لهذه الإرادة الإلهية بأن يكون النبي جاهلاً بالقراءة والكتابة؟

قال: «أي أن ما جاء به ليس من ثقافات البشر وإنما من السماء!!». فهل يذهب فضيلته إلى أن الله مكانه «السماء»؟ أليس هذا تشبيهاً وتجسيداً للذات العليّة؟

قال: «فكل ما عنده جاء به من ربه».

وهذا غير صحيح، فإن الذي جاء إليه، أو جاءه (وليس: جاء به) من ربه إنما هو الوحي القرآني.. فقط ليس غير. أما بقية أقواله وأفعاله (عليه السلام) فتدخل في نطاق القول والفعل البشريين. ولقد عاتبه ربه حين عبس في وجه ابن مكتوم

الضرير، وعاتبه حين حرّم على نفسه ما أحل الله له. وهذا سلوك بشري لا جدال يدخل في باب الخطأ الإنساني، وإن كان غير مقصود. أما ما يجيء من الله فلا خطأ فيه ولا غلط.

ثم ما معنى أن تقوم (الأمة العربية) بحمل الرسالة، وهي التي (ليس عندها شيء)؟ وحين تسأل: من أين جاءت بهذا؟ يقول لك: من السماء!! ويسمى هذا «القفزة الحضارية»؟

وهذا تخريف ما بعده تخريف. فالأمة العربية لم تكن أميةً على الإطلاق. ونزول القرآن الكريم بهذه اللغة الراقية الفخمة الجزلة الدقيقة جدًا الرائعة الصياغة، دليل على رقي لغة العرب يوم نزل. ولا يمكن إطلاقاً أن تكون ثمة لغة راقية في أمة جاهلة. لا يمكن أن تكون لغة متطورة هذا التطور العجيب في أمة بدائية متخلفة. إن لغة القرآن الكريم ذاتها دليل على رقي العرب وتقدم حضارتهم يوم نزوله.

هذا من ناحية. فإذا افترضنا ـ جدلاً ـ أن العرب كانوا قوماً متخلفين، جهلة، «أميين»، يومذاك، ثم جاءت الرسالة فحملوها وساحوا في الدنيا. فهذا ليس «معجزة» أبداً، إذ حدث قبله لليونان والرومان، فقد كانوا ـ في البداية ـ أقواماً جاهلة، تطورت حضارتها ونمت ثقافتها وساحت هي الأخرى في الأرض، وعمت الدنيا بنتاج تلك الحضارة والثقافة. ولم يكن لليونان نبي ولم يكن للرومان رسول.

قال فضيلة الشيخ الشعراوي: «إذن فقول العقاد صحيح عن الصحابة ولكن عن الرسول (ص) غير صحيح، لأن ثقافته ليست من البشر، إنما ثقافته علوية من السماء».

فعن أية «ثقافة» يتحدث هذا الشيخ؟ وهل يعرف معنى كلمة «ثقافة» أصلاً؟ ما هي هذه الثقافة التي هبطت من السماء؟ وهل يجوز أن يدعى «الوحي» (إن كان يعنيه) ثقافة؟!

أخيراً، ما هو الضير في استعمال تعبير (عبقرية محمد)؟

قال: «ثم من الذي يؤجل عبقريته حتى سن الأربعين؟ ونحن نعلم أن العبقريات تأتي في آخر العقد الثاني والعقد الثالث (من العمر). هل هناك إنسان تتكون لديه عبقرية ولا تظهر عنده إلا في سن الأربعين؟».

وبصرف النظر عن ركاكة اللغة، فإن الشيخ يبدو كأنه لم يقرأ شيئاً من السيرة النبوية. فلقد عرف النبي (ص) في صباه وشبابه بالأمانة والاستقامة الخلقية، وعرف ببعده عن مواطن اللهو والعبث، وهو الذي فض نزاع القبائل حول رفع الحجر الأسود في الرواية المشهورة، واتّجر بمال خديجة الكبرى وربح، وكان يعتكف في غار حراء يتعبد وينظر في هذا الكون وأحواله.. وروايات أخرى تدل على «عبقريته» المبكِّرة، حتى جاءه الوحي وهو في سن الأربعين، سن النضج العقلي والاتزان العاطفي، وقد تهيأ له واستعد لاستقباله.

فمن قال إن العبقرية تبرز في العقد الثاني أو الثالث من العمر؟ هناك ألف مثل من عبقريات برزت في أواخر العمر.. تفجرت بعد أن مر صاحبها بجملة من التجارب وسلك دروباً أي دروب.

إن محمداً بشر. ما في ذلك ريب. وهذا ما يتكرر في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: 110] ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: 93]. فإذا كتب الأستاذ العقاد عن (عبقرية محمد) فإنما يتناوله من هذه الزاوية، باعتباره «بشراً»، إنساناً، فيورد أحاديث هذه العبقرية البشرية التي تتجلى في سلوكه ونمط حياته وعلاقته بالآخرين ويما يدور حوله من مناشط الحياة. وهو ـ عليه السلام ـ لا شك كان عبقرياً فذًا بل كان نموذجاً للعبقري.

فما هذا؟

لقد جعلوا من نبينا الكريم (ص) رجلاً أُمّيًا، جافياً، جلفاً، فظًا، عييًا، مرة. وحرموا أن يكون رجلاً ذكيًا، عبقريًا، مرة أخرى. جعلوا من الجهل معجزةً، ومن الفراغ العقلي دليلاً على النبوة. كأنما النبوة لا تكون إلا لجاهل، والرسالة لا يكلف بها إلا عَيِيّ جلف فارغ دماغه من المعرفة، فيكون «ليس له شيء في هذه العملية» ـ كما هو تعبير الشيخ محمد متولي الشعراوي بالنص.

الخطأ.. كل الخطأ.. نشأ عن ترك هذه القضايا للأميين فعلاً، الجاهلين بالتراث فعلاً، الذين حرَّموا على أنفسهم نعمة القراءة والكتابة فعلاً. ومع هذا يصوِّرون لنا باعتبارهم «العباقرة» ويقدِّمون لنا على أساس أنهم «الأئمة».. وهم إلى «الأُمِّية» أقرب. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

... ثم نرجع إلى ما كنا بصدده من قبل.

* * *

(3) «الحنيف»

إنني مضطر إلى نقل هذا الاقتباس عن الأستاذ الصادق النيهوم ـ رغم طوله النسبي ـ حتى تتبين الفكرة. قال:

«إن أحداً لا يعرف من أين استمد المفسرون قولهم بأن كلمة (أمي) تعني (غير المتعلم). فليس ثمة مبرر ممكن واحد لهذا التفسير الغريب، سوى انحراف المنهج الذي ميَّز علم التفسير منذ مولده، بسبب إصراره على تجاهل مصادر لهجتنا العربية في القاموس الكلداني. ولو اختار الشراح أن يعودوا إلى أصل المصطلح في هذا القاموس لما فاتهم أن يلاحظوا أنه مجرد مرادف لكلمة (حنيف) التي أصبحت صفة قرآنية لمفهوم الإسلام نفسه.

فالحنيف في لغة الكنيسة الأرامية هو (الوثني) الذي لا ينتمي إلى اليهودية أو النصرانية، ومصدرها (ح ن ف) بمعنى: كفر وصبأ وارتد إلى الوثنية. وهو تعبير تلقائي في قاموس القرن السابع (الميلادي) لأن العالم لم يكن يعرف ديانةً سماوية ثالثة غير هاتين الديانتين. ولم يكن بالتالي ثمة تعريف آخر لمن لا يدين بإحداهما سوى لقب (الوثني) أو (الحنيف) الذي اشتقت منه كلمة (ح ن ف و ت) بمعنى: عبادة الأوثان».

وأضاف:

«بعد ظهور الإسلام حدث ارتباك متوقع في مفهوم هذا التعريف. فلم يعد غير اليهودي وغير النصراني ـ بالضرورة ـ رجلاً وثنياً، بل ظهر المسلم الجديد الذي لا يدين باليهودية أو النصرانية، لكنه أيضاً ليس وثنيًا من عبدة الأصنام. وهي الفكرة المحيرة التي أربكت مفهوم الإيمان لدى اليهود والنصارى معاً، ودعت إلى تصحيح جذري في معنى الدين من أساسه، بالعودة إلى (ملة إبراهيم)». (انتهى الاقتباس).

* * *

وقد تبيَّن، فيما أحسب، «من أين استمد المفسرون قولهم بأن كلمة (أُمِّي) تعني (غير متعلم)» بقدر كافٍ. وليس ثمة (فكرة محيرة) أبعث على الحيرة مما يحاوله الأستاذ النيهوم من

إثبات المرجعية الكلدانية، والتوراتية، والكنسية الأرامية، باعتبارها «مصادر لهجتنا العربية» ومنابع المصطلح الإسلامي. وهذا في الحق هو «انحراف المنهج» الحقيقي في مسار الأستاذ النيهوم نفسه.

فلماذا تكون (ح ن ف و ت) بمعنى عبادة الأوثان، في الكنيسة الأرامية، هي مصدر (حنيف) العربية الإسلامية؟ ولماذا يكون (القاموس الكلداني) بالذات أصلاً لهذا المصطلح؟

إننا نعلم بالتأكيد أن الأرامية/ الكلدانية ليست إلا لهجة من اللهجات العروبية، أو لنقل لغة من اللغات (فالعربية تستعمل كلمة «لغة» بمعنى «لهجة»، إذ يقال: لغة تميم، ولغة هذيل، ولغة قريش، بمعنى: لهجة). وهي تشترك والعربية في الأصول والجذور، بل في الفروع أيضاً، ثم يلحق كل لهجة (لغة) ما هو متوقع معروف من تنوع في اللفظ، وتطور في الدلالة، على مر الزمان. تماماً كما هو الحال اليوم في الفروق التي نلاحظها ما بين اللهجات السورية والليبية والمصرية والمغربية والسودانية.. الخ. وكلها لهجات عربية لا جدال.

فهل يكون لازماً أن تأخذ العربية عن الأرامية/ الكلدانية؟ ولم لا يكون العكس هو الصحيح؟ ولم لا نقول إن الاثنتين مشتركتان في الأصل.. أختان.. نبعتا من مصدر واحد؟ أم أن

لكلمة «كلدانية» و«كنيسة آرامية» ونحوهما رنيناً خاصًّا يثير الإعجاب؟!

فلنقرأ شيئاً مما ورد في مادة «حنف» في (لسان العرب) الذي لم يكلف الأستاذ التيهوم نفسه مشقة النظر فيه:

«الحنف، في القدمين: إقبال كل واحدة منهما على الأخرى بإبهامها. الأحنف: هو الذي يمشي على ظهر قدمه من شقها الذي يلي خنصرها. وبه سُمي الأحنف بن قيس، واسمه صخر. وأنشد لداية الأحنف:

والله لولا حنفٌ برجله

ما كان في فتيانكم من مثله

والحنيف: المائل من خير إلى شر أو من شر إلى خير. وحنف وتحنف: مال. والحنيف: المسلم الذي يتحنف عن الأديان (الأخرى) أي يميل إلى الحق. من كان على دين إبراهيم فهو حنيف عند العرب. الحنيف، في الجاهلية: من كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويختتن، فلما جاء الإسلام كان الحنيف المسلم، وقيل له: حنيف، لعدوله عن الشِّرك. والحُنفاء: جمع حنيف، وهو المائل إلى الإسلام الثابت عليه». إلى آخر ما في هذه المادة من تفصيل، يهمنا منه قوله: «وكان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون: نحن حنفاء على دين

إبراهيم. وكان في الجاهلية يقال: من اختتن وحج البيت حنيف، لأن العرب لم تتمسك بشيء من دين إبراهيم غير الختان وحج البيت. والحنيفية في اللغة: الميل».

الجذر (حنف) في العربية إذن يفيد الميل، عن أو إلى. فإن كان الحنف عن الخير إلى الشر فهو حنيف بالمعنى السيّء للكلمة، وإن كان الحنف عن الشر إلى الخير فصاحبه حنيف بالمعنى الحسن. الاستعمال فقط هو الذي يحدد الدلالة.. بالضبط كما نقول: «رغب فلان في كذا»، فهو يحن إليه ويطلبه. كما نقول: «رغب عن كذا» فهو ينفر منه ويكرهه.

فما هي الحاجة إلى «حنفوت» الأرامية/ الكلدانية، وفي العربية غَناء أي غَناء؟

نقطة صغيرة أخيرة:

استعمل العرب منذ القديم اسم «حنيفة» ـ ويستعمل حتى يومنا هذا ـ اسم علم. ومن ذلك ما جاء في (اللسان): حنيفة أبو حي من العرب، وهو حنيفة بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل. وقيل: بنو حنيفة حي من ربيعة، وهم قوم مسيلمة الكذاب.

فيا حبذا لو راجع الأستاذ الصادق النيهوم ما يكتب قبل أن يدفع به إلى (الناقد). والسلام!

بعض ملاحظات ثقافية عن هنود القارة الأمريكية(*)

«من قاعات مونتزوما إلى شواطىء طرابلس سنخوض معركة بلادنا في البر أو في البحر». . .

هكذا يبدأ نشيد البحرية الأمريكية الشهير يغنيه (المارينز) رجال البحرية الأمريكية منذ أوائل القرن التاسع عشر، وحتى يومنا هذا في حروبهم، وكلما نزلوا شواطىء شعوب أخرى يغزونها، وينشدونه كل يوم.

أما (شواطىء طرابلس) فالمقصود طرابلس الغرب ـ ليبيا اليوم التي شنت عليها الولايات المتحدة الأمريكية أول حرب

(*) قدمت في ندوة بمناسبة منح (جائزة القذافي لحقوق الإنسان) لشعب الهنود الحمر ـ طرابلس 1992إفرنجي.

تنبيه:

ترد في هذا البحث تسميات: «الهنود الحمر»، «الهنود الأمريكيون»، «هنود أمريكا»، «الهنود»، وكلها بمعنى واحد.

تعلنها على دولة أخرى في تاريخها أيام الرئيس جفرسون، واستمرت أربع سنوات كاملة (1801 ـ 1805إفرنجي) وذلك بسبب رغبة الدولة الجديدة المتحررة حديثاً من الاستعمار البريطاني (إذ استقلت الولايات المتحدة الأمريكية وأعلنت جمهوريةً ذات سيادة سنة 1776إفرنجي) في التسلّل إلى مياه البحر الأبيض المتوسط ومنافسة الدول الأوروبية، بريطانيا فرنسا، السويد، الدول ـ المدن الإيطالية، إسبانيا، البرتغال.. الخ، في الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من التجارة الدولية والسيطرة على الاقتصاد العالمي، وكانت ليبيا وقتها دولةً مستقلة ليس للتاج العثماني عليها من سلطة، وإن كانت تتبعه تبعيةً اسميةً ليس غير، وكان عليها حماية مصالحها في مياه البحر المتوسط الذي تحتل شواطئها أكبر مسافة من ساحله لدولة من الدول.. مما أدى إلى صدام مباشر بين البحرية الليبية والبحرية الأمريكية القادمة من وراء البحار، وكان هذا الصدام مقدمة لحرب ضروس تكبدت فيها البحرية الأمريكية خسائر فادحة ممثلة في فقدانها عدداً كبيراً من السفن الحربية ومئات القتلى والجرحى، كما أسر منها أكثر من ثلاثمائة بحار وضابط أُودِعوا قلعة طرابلس وعوملوا معاملة أسرى الحرب، ولما أرادت الولايات المتحدة الالتفاف على القوات الليبية من الشرق عن طريق حملة برية انطلقت من مصر بقيادة الجنرال (إيتون) Eton، ودخلت

مدينة درنة تمهيداً لزحفها غرباً، فوجئت بمقاومة شعبية مسلحة عنيفة أوقفتها حتى انتهت مفاوضات كانت تجري بين البلدين المتحاربين وعقدت اتفاقية صلح جلت بموجبها القوات الأمريكية عن درنة يوم 11 من شهر الصيف (يونيو) 1805إفرنجي وأطلق سراح الأسرى الأمريكيين في طرابلس.

وأما (قاعات مونتزوما) فتشير إلى تلك المعابد الضخمة البالغة الروعة التي شيدها الامبراطور مونتزوما الثاني (Montezuma) آخر أباطرة شعب الأزتك Aztec في المكسيك، وقد ولد الامبراطور مونتزوما سنة 1466إفرنجي أي قبل (اكتشاف) القارة الأمريكية بستة وعشرين عاماً وتولى الحكم بعد عمه أهويزوتل Ahwizotel سنة 1502إفرنجي، وكان إلى جانب أنه امبراطور واسع السلطان كاهناً أي زعيماً دينياً ورجلاً عسكرياً ممتازاً، وكان جيشه قويًا منظماً تنظيماً رائعاً، استطاع به أن يمد ملكه من وراء المكسيك حتى بلغ الهندوراس (Honduras) ونيكاراغوا (Nicaragua) وبعد «اكتشاف» القارة الأمريكية سنة 1492إفرنجي تدفق الأوروبيون وخاصة الإسبان على الدنيا الجديدة كما سميت حتى بلغوا المكسيك. وقد قابلهم مونتزوما بروح طيبة واستقبلهم استقبالاً حسناً، فكان جزاؤه أن شن الإسبان بقيادة كورتيز حرباً شعواء مزودين بأسلحتهم النارية الحديثة، حتى هزموه وأخذه كورتيز أسيراً في العاصمة مكسيكو

(Mexico) فقام شعب الأزتك بثورة ضد الإسبان بقيادة شقيق الامبراطور الأسير وحاول الإسبان استخدام أسيرهم أداة لتهدئة الثورة، ولكن المحاولة أخفقت، وقتل مونتزوما سنة 1501إفرنجي.

هذا هو مونتزوما صاحب (القاعات) الشهيرة في نشيد البحرية الأمريكية وهذا ملخص ما تقوله عنه الموسوعة البريطانية، ولعل الصدفة وحدها هي التي جعلت (اكتشاف) أمريكا و(إخراج) العرب من الأندلس يقعان في العام ذاته 1492إفرنجي. وقد عانى العرب الذين ظلوا في إسبانيا بعد سقوط غرناطة الأهوال من الاضطهاد الديني الرهيب ومكثوا عشرات السنين يتخفون بدينهم الذي حرموا مزاولة شعائره، ويخفون لغتهم العربية التي منعوا من استعمالها منعاً باتًّا، حتى يقابلنا في أواسط القرن التالي رجل عربي مسلم ممن أسماهم الإسبان (الموريسكيين) Mooricos يكتب بلغة عربية كسيرة محطمة كتاباً يرد فيه ذكر الامبراطور مونتزوما في مجال بيان غدر ملوك أوروبا وعدم وفائهم بعهودهم. قال في نص قصير كتبه سنة 1641إفرنجي وهو يتحدث عن رغبة ملك إسبانيا في إرسال سفير له إلى البلاط العثماني في القسطنطينية ورفض آل عثمان له: (ولم يقبلوه لما تحققوا من عداوته للإسلام، وغدره في ما مضى، مما صدر منهم (أي من الإسبان) مع سلطان الهنود

المغربية بمدينة ميشق (أي مكسيكو) المسمى متشمة (= مونتزوما) إذ مشوا إليه بهدية وقتلوه).

وطبيعة الغدر الثابتة هذه في نفس (الرجل الأبيض) هي التي جعلت زعيماً آخر من زعماء (الهنود المغربية) كما أسماهم أحمد الحجري ـ هو الزعيم موتاڤاتا Motavata يعلن سنة 1864إفرنجي وهو يقاتل الزحف الأبيض على بلاده في الغرب الأمريكي:

«لقد ظننت ذات يوم أنني الرجل الوحيد الذي حافظ على صداقة الرجل الأبيض ولكن صار من العسير علي منذ أن جاء البيض وقضوا على بيوتنا وخيولنا وعلى كل شيء أن أصدقهم مرة أخرى»[1].

* * *

كانت البداية في يوم 12 من شهر التمور (أكتوبر) سنة 1492إفرنجي حين وضع كريستوفر كولومبوس Chr. Colombus قدمه لأول مرة على إحدى جزر الأنتيل من (الأرض الجديدة) أطلق عليها اسم «سان سلڤادور» San salvador حيث استقبله

---

(1) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي؛ ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق محمد رزوق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 1987 ـ ص99.

سكانها الأصليون خير استقبال، وكتب كولومبوس إلى ملك وملكة إسبانيا يومها يقول:

«وديعون، مسالمون، هؤلاء القوم حتى أنني لأقسم لجلالتكما أنه لا توجد أمة على وجه الأرض خير منهم. إنهم يحبون جيرانهم محبتهم لأنفسهم، وحديثهم عذب لطيف تصحبه ابتسامة، ومع أنهم عراة الأجساد، فإن أخلاقهم محتشمة وجديرة بالثناء».

ويعلق دي براون Dee Broun على هذا الرأي قائلاً: لقد اعتبر هذا بالطبع علامة ضعف إن لم يكن وثنية، ولما كان كولومبوس أوروبياً صالحاً فقد اقتنع أن هؤلاء الناس إنما خلقوا «للعمل وليقوموا بكل ما هو لازم وليتبعوا طرق حياتنا» حسب كلماته، وعلى مدى القرون الأربعة التالية (1492 ـ 1890) تعهد عدة ملايين من الأوروبيين وأعقابهم بفرض (طرق حياتهم) على أهل (العالم الجديد). وقد خطف كولومبوس عشرة من أبناء التاينو[1] Taino الذين استضافوه وحملهم معه إلى إسبانيا

---

(1) هذه هي التسمية التي يطلقها هنود أمريكا على أنفسهم، ومعنى الكلمة في لغة جزر الهند الغربية ـ كما تسمى ـ: الحر، النقي، الصافي. ولعل كلمة «أنتيل» antille التي تطلق أيضاً على هذه الجزر مشتقة منها. هل ثمة صلة بين كلمة taino الهند أمريكية والفارسية (ألتون alton) بمعنى: قصدير، صاف، نقي، جوهر، ذهب؟، إننا نجدها في الإنكليزية (tin) وفي الفرنسية etain وكذلك: laiton وترجع في معجم الفرنسية إلى العربية (لاطون)=

ليقدموا إلى (طرق حياة) الرجل الأبيض، أحدهم مات، بعد وصوله. . ولكن ليس قبل أن يعمد باعتباره نصرانيًّا، وقد ابتهج الإسبان أيما ابتهاج إذ مكنوا لأول (هندي أحمر) أن يدخل الجنة، وسارعوا يبلغون البشائر إلى جزر الهند الغربية![1].

هذه هي (البداية الطيبة). ثم كانت المأساة المروعة التي لم يشهد تاريخ البشرية لها مثيلاً أبداً؛ مأساة الإبادة الجماعية لملايين البشر والقضاء على وجودهم وحضارتهم وإفنائهم لا لشيء إلا لأنهم وجدوا في أرض واسعة غنية منذ آلاف السنين والجشع الأوروبي لا يسمح بأن يشاركه أحد أبداً في خيراتها.

فمن هم الهنود الحمر أولاً:

نحن نعرفهم بهذا الاسم نقلاً عن الإنكليزية (Red Indians) كما لقبوا في فترات لاحقة بلقب (الجلود الحمر) ـ في الإنكليزية (Red Skins) وفي الفرنسية Peaux rouge وعرفوا في

= وفي مادة (لطن) في (لسان العرب): اللاطون: الأصفر من الصُّفر ـ أي النحاس الصافي. وفي جزر الكاريبي لا تزال كلمة nitaino بمعنى «شريف» noble أو مميز man of distinction حسبما يذكره (ڤون سرتيما) Ivan von Sertima. ونحن نرى أن (n) في بداية الكلمة هي نون الإضافة كما في بعض اللغات العروبية (كالمصرية القديمة والأمازيغية في شمال أفريقيا) = of: تقوم مقام النسبة في العربية العدنانية، أضيفت إليها tains فصارت n (i) tain = النبيل، الشريف، ذو الشرف.

(1) Dee Brown; Burry my heart of Wounded Knee - P. 67.

السبعينات باسم (الهنود الأمريكيين) أو (هنود أمريكا). ويقال إن كولومبوس هو الذي أسماهم indios وعللت التسمية بأنه كان يعني (الهنود) إذ كان يحسب أنه وصل بلاد الهند القديمة المعروفة، ولكن بلاد الهند هذه كانت معروفة عند الأوروبيين باسم «هندستان» ويقترح بعض الدارسين أن التسمية جاءت أصلاً من عبارة Una gente in dios (حرفياً: ناس في الله. أو لنقل: ناس الله. أو: عيال الله) لطيبة هؤلاء القوم ورقتهم، اختصرت إلى in dios ثم أدغمت فصارت (indios) [1].

فما هو أصلهم يا ترى؟

نظريات كثيرة تحدثت عن أصل هنود أمريكا واختلفت في هذا الأصل لكنها اتفقت على أنهم قادمون من خارجها ليس قبل العصر الجليدي (حوالي 35,000 سنة مضت اعتماداً على بقايا الهياكل وإخضاعها لتحليلات الكربون 14). قالت بعض الآراء إنهم بقايا شعب حضارة (أطلنتس) المفقودة أو حضارة جزيرة (مو). وذهبت بحوث إلى أن أصلهم يرجع إلى المصريين القدماء وإلى الكنعانيين أو اليونان أو الويلزيين أو الصينيين أو اليابانيين. . . الخ. وظهرت دراسات تعيدهم إلى أفريقيا السوداء، وأخرى تقول إنهم من الليبيين ـ سكان شمال أفريقيا.

---

(1) Peter Matthiessen; indian country p. 15.

ويعض هذه المذاهب قابل للنقاش ويعضها غير مقبول عقليًا ولا تسنده آثار أو شواهد علمية أركيولوجية أو لغوية. لكن فكرة قدوم هنود أمريكا إلى (العالم الجديد) عن طريق ممر بيرنغ Bering أو بهرنغ Behring الواصل بين قارة آسيا والقارة الأمريكية في أقصى نقطة شمالاً سيطرت طويلاً في الأذهان. وهو ما تأخذ به (الموسوعة البريطانية) وتبرِّره ببروز العناصر الفسيولوجية المنغولية في السحنات وخاصة سكان أمريكا الشمالية، ويعدم إمكان عبور المحيط الأطلسي في بدايات التاريخ البشري الأولى. وهذا الرأي لا يمكن التسليم به بإطلاق، ذلك لأن الصفات المنغولية لا تنطبق على هنود أمريكا جميعهم وهي إن برزت في سكان الشمال الأقل عدداً فإنها لا تلاحظ بشكل واضح في أهل أمريكا الوسطى والجنوبية، كما أن الدراسات أثبتت غلبة فصيلة الدم (A) على أهل الشمال بينما تعم الفصيلة (O) في الوسط والجنوب. وهو ما تقوله الموسوعة ذاتها(1). وليس حقيقيًا أن الإنسان لم يكن مستطيعاً عبور المحيط منذ أزمان موغلة في القدم، إذ ثبت إمكان ذلك بفضل تيارات المحيط الأطلسي، حتى بالنسبة للقوارب الصغيرة، إلى جانب أن شعوباً قديمة (مثل الكنعانيين) كانت قادرة على بناء

---

(1) Encyclopiedia Britannica, antielle «indians».

سفن ضخمة تتسع أحياناً لثلاثة آلاف إنسان[1].

والرأي الذي نرجحه أنه كان ثمة عبور آسيوي عن طريق ممر بيرنغ كما عبرت مجموعات بشرية المحيط الأطلسي من شمال أفريقيا وربما من شبه جزيرة إيبيريا، وكذلك من الشعوب القديمة في ما يعرف الآن باسم (الشرق الأدنى)، امتزجت وكونت (شعباً) متعدد العناصر، ويبدو أنّ هجرات مهمة تمت في عصور تاريخية متأخرة نسبياً تبرهن عليها اللقائط الكتابية التي عثر عليها في شكل نقوش على الصخور والمخلفات الأثرية في مواقع مختلفة من الأمريكيتين بالقلم الهيروغليفي المصري وبالقلم الليبي القديم (التفناق) وبالحرف العربي الكوفي وبالخط الكنعاني[2].

وقد دعم هذا الرأي على أساس لغوي مقارن في دراسات مقارنة خاصة في بعض اللغات الرئيسية عند هنود أمريكا مما هو موطن بحث طويل، كما دعم بدراسات أنثربولوجية واجتماعية تتعلق بالفنون والعادات والتقاليد، وتتصل بالديانة والعبادات وبكشوفات أركيولوجية.

وخلاصة القول أن الهنود الأمريكيين تكونوا على مدى

---

(1) أنظر مثلاً Jean Rougé; Ships And Fleets of The Ancient Mediterrenian.

(2) D. Von Sertina; They Came Before Colombus Barry Fell; America B.C.

أحقاب متطاولة من مجموعات بشرية متنوعة تفاعلت وانصهر بعضها في بعض حتى كونت (أمة) كبيرة، فيها ما في كل أمة من تنوع وتعدد وبين طوائفها اختلافات بيئية طبيعية، وربما إثنولوجية وفسيولوجية، تنقسم إلى قبائل متعددة ولغات كثيرة ولكن يجمعها (وطن واحد) تماماً كما حدث في نشأة (الولايات المتحدة الأمريكية) المعاصرة من عناصر شتى صارت كلها (أمريكية).

هذه (الأمة) الممتدة في الزمان عمقاً تمكنت في فترات من تاريخها من أن تنشىء حضارات عظيمة وقف الأوروبيون أمامها مذهولين حين واجهوا آثارها. صحيح أن الأوروبيين لم يقابلوا عندما وطأت أقدامهم (الأرض الجديدة) سوى مجموعات من البشر المتخلفين العراة الأجساد في معظمهم إلا ما يستر العورة، فلما مضوا في أعماق القارة فوجئوا بما لم يكن يخطر لهم على بال من بقايا الحضارات الغاربة كما فوجئوا بآثارها متمثلة في شعب الأزتك الذي كان يقوده مونتزوما في المكسيك. حضارات مثل حضارة المايا Maya والإنكا Inca إلى جانب الأزتك Aztec. وكثيرة جدًّا هي الكتب التي سطرت عن هذه الحضارات (الهندية) البائدة وعن آثارها نقتبس من أحدها ما قد يعطي صورة سريعة عنها.



يتحدث بول رادان Paul Radin في كتابه عن (الحضارات الهندية في أمريكا)[1] بتفصيل وتتبع دقيقين ويذكر الشيء الكثير عن نشأتها وتطورها ونظمها السياسية والاجتماعية والدينية والعسكرية وفنونها وتقنياتها الزراعية والصناعية وعلومها وعن نهاياتها الغامضة أو المأساوية فيقول:

على بعد بضعة أميال من مدينة مكسيكو كانت تنتصب آثار مدينة كوبان Coban إحدى مفاخر حضارة المايا في ما مضى فوق سهل كبير طوله اثنا عشر كيلو متراً وعرضه ثلاثة كيلو مترات. كان منظر أخاذ يطالع من ينظر إليه؛ الشوارع والساحات والعرصات كانت مبلطة بالحجر والإسمنت الأبيض المصنوع من الكلس ومسحوق الحجارة، وكان نظام واسع للري في خدمة المدينة مؤلف من أقنية مغطاة ومسارب تحت الأرض من الحجر والإسمنت. وعلى الشاطىء الأيمن من النهر في قلب المدينة نفسها كانت ترتفع المجموعة الرئيسية من الأبنية من معابد وقصور ومنشآت عامة. في هذا الحشد من الآثار يقع نظرنا على أول بناء عام في أمريكا، وقد بني على أساس أن تقابل واجهاته الجهات الأصلية الأربع... ولا بد أن المجموع كان يشكل منظراً مذهلاً (ص38).

(1) ب. رودان: الحضارات الهندية في أمريكا، ترجمة يوسف شلب الشام، نشر دار المنارة، اللاذقية، سوريا 1989إفرنجي.

ثم يمضي ليصف صفوف المقاعد على ارتفاع ستة وثلاثين متراً والسلالم والأرصفة المزينة وأجنحة البناء الممتدة على أطراف المعبد والغرف المقبية والأبنية الهرمية البديعة والطوابق العليا. . الخ.

تلك هي كوبان، وهي نموذج واحد من عشرات المدن التي بناها شعب المايا ويعود تاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد وقد أتقن هذا الشعب فن البناء وتزيينه بنحوت بارزة ورسوم مناظر طبيعية ووجوه أشخاص بتعقيدات فنية بارعة وتشبيكات مذهلة، تصور الآلهة والمعبودات الرئيسية، مما يشير إلى عبادة متقدمة راقية لها مميزاتها وخصائصها المرتبطة بالاحتفالات والشعائر المركبة. كما عرف شعب المايا نظاماً اجتماعيًا مسلسلاً وسلطةً هرميةً بنظام ملكي ووصلوا إلى أسلوب كتابة هيروغليفي تصويري لا يزال لم تحل رموزه بعد، يبدو أنه تطور إلى رموز تكاد تكون هجائية (ص53). وكان لهذه الرموز حسابات زمنية قد تدل على أحداث تاريخية ربما يكشف عنها النقاب يوماً. وفي مجال الحساب لم يتوصل الباحثون حتى الآن إلى أكثر من الكشف عن نظام عددي من الصفر حتى العدد (19) ولكن عرف أن أهل المايا كانوا يقيمون الوقت على أساس السنة القمرية ذات الاثني عشر شهراً والثلاثين يوماً لكل شهر، كما خلقوا دورة اصطلاحية تتألف السنة فيها من 13 شهراً

والشهر من 20 يوماً وطابقوا السنة القمرية مع السنة الشمسية وعرفوا الدورات الفلكية، وخلقوا نظاماً للعد واخترعوا سنة طقسية ذات مائتين وستين يوماً (وهي سنة مصطنعة).

وقد قسم العلماء حضارة المايا إلى 3 أحقاب تبدأ الحقبة الكبيرة الأولى منها في القرن الثاني قبل الميلاد وتنتهي في القرن الرابع. والحقبة الثانية استمرت قرناً واحداً بعد ذلك. أما الحقبة العظمى فتمتد حتى أوائل القرن السابع لأكثر من مائة وخمسين عاماً، حيث يتقدم فن البناء بسرعة كبيرة، فتصبح الغرف أكثر اتساعاً والجدران أكثر رقةً والأشكال أقل غلظةً، وحسابات التدوين تعالج مواضيع فلكية تتزايد تعقيداتها يوماً بعد يوم (ص61).

ما بين القرنين الخامس والسابع للميلاد ازدهر أعظم عصر لحضارة المايا، ثم ما لبثت أن انهارت بشكل فجائي، ربما نتيجة حرب أهلية أو وباء أو انحطاط لحق بالمجتمع، ولكن الفترة ما بين القرنين العاشر والثالث عشر شهدت حركة تشبه (عصر النهضة) ظهرت فيها أفكار جديدة مثل الرسم على الخشب ورسوم فسيفسائية وتصوير وجوه على الطريقة الإغريقية وأعمدة على شكل حزم ومشبكات على أشكال منحرفة. ثم جاء عصر الانحطاط (سنة 1200 ـ 1450إفرنجي) وفيه تبدلت

حضارة المايا بتأثير ثقافة أخرى أقل تقدماً ربما جاءت من الشمال.

يختتم راذان حديثه:

«تلك كانت حضارة المايا، وكان بهاؤها قد انطفأ منذ أكثر من نصف قرن عندما بدأ الإسبان (بقيادة فرناند كورتيز) عملهم التخريبي المشؤوم، ولم يكونوا يقيمون أي اعتبار لكسوف هذه الحضارة الوطنية التي وجدوها في (الدنيا الجديدة)». (ص62).

في المكسيك قامت حضارة الأزتك، وكانت حضارة قائمة على القوة العسكرية مؤسسة على نظام ملكي انتخابي بالغ الدقة ونظام كهنوتي مسيطر، وكانت العاصمة مكسيكو منقسمة إلى أربعة أحياء وإلى عشرين زمرة محددة تحديداً واضحاً ربما كانت تمثل ما كان في الماضي قبائل مختلفة. أما المجتمع فينقسم إلى ثلاث طبقات: النبلاء والشعب والعبيد (نفس النظام الأثيني الشهير).. كما تنقسم عامة الشعب إلى جماعات: المزارعين والحرفيين والتجار. ويبدو أن الحرفيين كانوا منتظمين في طوائف محددة تماماً ولهم مركز عبادة مشترك، وكان الصاغة يحتلون مكانة أعلى من الآخرين، ويأتي بعدهم الخزافون وعمال الفسيفساء الزرقاء والنساجون والصباغون، ذلك لأن هذه الحضارة تميزت بالعناية بنقش الذهب والمعادن وصناعة

الأسلحة وما يحتاجه الجيش من ملابس وأحذية. . الخ. كما انقسمت طبقة التجار إلى: تجار نبلاء يعيشون في الأحياء الراقية، وتجار عبيد، ثم التجار العاديين الذين يزورون البلاد الأخرى متبادلين السلع وحاصلين على المعلومات العسكرية لمصلحة الجيش.

هذا المجتمع المعقد كان لا بد له من نظام تعليمي صارم، وهو الواقع. فقد كان هناك التربية العسكرية إلى جانب التعليم العام الذي يبدأ في سن الثالثة ولا ينتهي إلا بالزواج في مراحل منظمة لكل مرحلة دروسها ومنهجها، ثم تأتي مرحلة التخصص، فيرتدي التلاميذ في كل تخصص ديني أو عسكري ملابس مميزة تتفق والمهنة التي يُعَدُّون لها، بينما تعلم الفتيات اهتمامات منزلية متخصصة كما يعلمن مهن الغزل ونسج الأغطية والعناية بالمعابد.

وإذا كان الأزتك شعباً محارباً في الأساس، فهو استطاع الحفاظ على تقاليد الحضارة السابقة في فَنَّي النحت والعمارة، ووصل في صناعة الفسيفساء إلى مستوى من الاتقان منقطع النظير. وفي قوائم جرد الغنائم التي نظمها الإسبان ذكرت أشياء منها ما خلفته الحضارات السابقة للأزتك ومنها ما كان لا يزال يُصْنع في البلاد عند (الفتح) يحتوي على سبائك ومرايا وعقود وتماثيل أسود وتماثيل أشخاص وأزهار وتماثيل حيوانات،

وتروس، وكلها من الذهب. ومن ضمن (الغنائم) سبيكة ذهبية تزن واحداً وعشرين قنطاراً ونصف القنطار عندما نقلها الإسبان إلى المصهر.

وكان الأزتك زارعي ذرة صفراء من الطراز الأول، كما عرفوا الكاكاو ونسجوا الثياب القطنية الجيدة الصنع.



في البيرو ولا تزال آثار حضارة الإنكا anca [1] ماثلة

---

(1) هذه كلمة مهمة نود أن نناقشها بشيء من التفصيل، إذ يقرر «ليونارد كورتيل» في كتابه (مدن ضائعة) ـ (178). Leonard Cortell أن كلمة (إنكا inca) وتكتب أيضاً inka، تعني في لغة هنود أمريكا: ملك، حاكم. وهي لقب كان يطلق على ملك من ملوك هذا الشعب، ثم عممت على الشعب كله (مثل كلمة (فرعون) في مصر القديمة التي تعني حرفياً: البيت العالي ـ كناية عن (الملك) ومنها الفراعنة ـ جمع (فرعون) ـ التي عمت شعب مصر القديمة. أو كلمة (أشور) التي هي اسم المعبود الأكبر في نينوى، ثم صارت النسبة (أشوري/ أشوريون) تعني شعب تلك البلاد في أرض الرافدين). كلمة (إنكا inca) كان معناها الأصلي: القوي، الجبار، أي الحاكم، أو الملك. وهي صارت مع الزمن والتحريف أو ربما الخطأ في نقلها إلى الحرف اللاتيني عند قبيلة «الختسوا» Khetsua أوائل هذا القرن في صورة nanah وعند بقايا المايا في صورة ayacnax ويترجمها «ليسبرغ» إلى الإنجليزية giant (جبار، مارد، عملاق) في معجمه المقارن (انظر: Lessberg; A comparison Betwen semetic... وهذا ما يذكرنا بما في اللغة المصرية القديمة: (عَنخ): حي، قوي. وكذلك (عنق) = قوي، جبار (معجم بدج Budge). وفي اللغة الكنعانية (عنق): الرفيع، العالي، =

للعيان، كما لا تزال بقايا الشعب ذاته الذي دمره الغزاة الإسبان بأسلحتهم النارية الفتاكة. نجد هذه الآثار متناثرة في أماكن متفرقة تدل على مجد غابر ومدنية راقية. ولعل الإنكا كانوا أحفاد حضارات عليا أقدم عفى عليها الزمان، وكانوا شعباً تقوم ديانته على عبادة الشمس إلٰهاً أعظم يسمى «ويراشوكا» Werashoka (تماماً كما كان «رع» عند المصريين القدماء) وكان

= الشريف (فريحة: ملاحم... ص648). وقارن العبرية (عناقيم) ـ صيغة الجمع ـ: الجبارون، العمالقة أو العماليق، وهم الكنعانيون الذين قاتلهم العبرانيون في فلسطين. ولا ننسى الشخصية الأسطورية المعروفة (عوج بن عناق، أو بن عنق) الذي ورد ذكره في التوراة، المهول الجثة المقاتل الجبار، واسمه يعني حرفياً: القوي بن القوي، أو الملك بن الملك. وكلمة (عوج) نجدها في الأمازيغية (أج ag) بمعنى: زعيم، رفيع. وهي في العربية: أوج = مرتفع (وفي اليونانية ago = رئيس). أما في العربية فإن في مادة (عنق) دلالات القوة والعظمة التي كانت تطلق عادة على الحكام والزعماء وهي مادة طويلة غزيرة. ونحن نجد المقطع (عنق) في اسم الفرعون الليبي ـ المصري المشهور الوارد في التوراة في صورة (شيشق) وفي النقوش المصرية في صورة (ش ش ن ق) والاسم المكون من مقطعين: (ش ش) = الأخ (في السومرية والأكادية) + (ن ق) (= عنق ـ بسقوط حرف العين) = القوي. ويبدو أن كلمة (عنق) وما قاربها، انتقلت إلى اللغة اليونانية من قديم الزمان، حيث نجدها في شكل anax. وحرف الهمزة (a) في بداية الكلمة مقلوب عن العين (وحرف (x) في آخرها مضاف بدلاً من القاف وكان ينطق خاء معجمة (أناخ = أنخ) تماماً كما تحولت العين إلى همزة مكسورة عند هنود أمريكا فكانت: inqua «inka = inca» = عنق (حاكم، ملك، قوي، جبار = giant).

أشهر معابده في البلاد معبد «كوزكو» Cozco. وقد شهد سارميانتو Sarmianto أحد المؤلفين الجديرين بالثقة وكان قد رآه في عز بهائه وجماله بأنه «لم يكن يوجد في إسبانيا كلها إلا بناءان يمكن أن يضاهياه في الاتقان والكمال». وكان الذهب، وهو الدموع التي تسكبها الشمس كما يقول الإنكا، يلمع في كل مكان كما أن داخل المعبد كان يضيء من الصفائح الذهبية الصقيلة ومن المسامير المصنوعة من هذا المعدن الثمين. أما الأفاريز المحيطة بالهيكل فكانت من المعدن نفسه بينما رصع الجدار الخارجي بعصابة من الذهب تحيط بالبناء كله.

أما من حيث التنظيم الاجتماعي، فإن شيئاً لم يكن يُتْرك للصدفة في دولة الإنكا. وكانت السلطات المحلية توزع الأعمال بحسب الكفاءة والقدرة وتسهر على الاستفادة من الكفاءات. وتميزت حضارة الإنكا بشبكة رائعة من الطرق وأقنية المياه والجسور والحصون القائمة على النقاط المهمَّة (مثلما كانت الدولة الرومانية). والدولة مقسمة إلى ولايات ترعى كل ولاية طرقها والمراكز الموجودة فيها، وابتدعوا نظاماً للإشارات وإبلاغ الأخبار كان من الكمال بحيث يعلمون ما يجري من مسافات تصل إلى ثمانمائة ميل في أسرع وقت ممكن، وكان ثمة طريق يشق البلاد ويخترق الهضاب قُدِّر طوله بـ3200 كيلو متر، وطريق آخر ما بين جبال الأنديز والمحيط الهادي يمضي طولاً

محاذياً للساحل مما كان ييسر الاتصال والانتقال وتبادل السلع والمنافع بين سكان الامبراطورية، وعلى طول الطريق خانات للاستراحة وعبر الوديان بنيت جسور معلقة بطريقة مدهشة.

وبرع الإنكا في البناء والنحت وصناعة الأبواب الضخمة والمسلات الحجرية، نقشت عليها وجوه حيوانات كاسرة ورموز هيروغليفية وصور أشخاص قد يكونون أبطالاً وطنيين أو زعماء مشهورين، وكان النحاس الأكثر استعمالاً من بين المعادن ويتبعه البرونز ثم الذهب والفضة. وبرعوا في صناعة أدوات الزينة من أساور وأقراط وخواتم، وكذلك التروس والتيجان والمزامير ـ من المعادن المذكورة، ويضيف رادان:

«وقد استغرق (الفاتحون) الإسبان استغراقاً كاملاً في إذابة ما حصلوا عليه من تحف، وأصابهم مسٌّ لكثرة ما حسبوا أثمانها بالنسبة للمعايير الأوروبية حتى إنهم لم يتركوا وصفاً مفصلاً لكل ما وصل إليهم من هذه التحف، ومع ذلك وصلت إلينا بعض التفاصيل؛ فقد رأى المؤرخ «أوفييدو» Oviedo عدداً من الآنية الرائعة الصنع والمرصعة بكثرة بذهب صافٍ يبلغ ارتفاعها ثلاثين سنتيمتراً ومحيطها خمسة وسبعين، وهناك مؤرخون آخرون ذكروا أقداحاً وأباريق وأطباقاً وحليًا ومواعين للمعابد والقصور الملكية وصفائح لتزيين المباني العامة وتقليدات للنباتات والحيوانات. وإليك وصفاً جميلاً لعرنوس

من الذرة الصفراء: كان العرنوس (الكوز) نفسه من الذهب الخالص، وكان مُغَطًّى بأوراق عريضة من الفضة تخرج منها حزمة جميلة من الخيوط المصنوعة هي الأخرى من الفضة، ويدّعي البعض، ولعلهم يقولون صدقاً، أنهم رأوا بِرْكة ماء مصنوعة من الذهب تنبثق منها حزمة ذهبية لامعة تمثل الماء بينما تلعب في قاعها طيور وحيوانات صيغت من المعدن نفسه». (ص128 ـ 129).

وقد كان ثمة تنوع مثير في أساليب النحت الفنية وفي التشكيلات الخزفية وفي أشكال الآنية المصنوعة من المعادن مما يشير إلى ثراء ثقافي بديع.

ومن الواضح براعة الإنكا في معالجاتهم الطبية، وكانت عادة تحنيط الموتى، وخاصة الملوك والنبلاء، عادة واسعة الانتشار في البيرو، فقد كان الإنكا ـ مثل قدماء المصريين ـ يتصورون حياة كاملة بعد الموت ويؤمنون بالبعث وكان التحنيط جيداً حتى أن أحد (الفاتحين) الإسبان كتب وهو يشاهد الجثث المحنطة في (معبد الشمس): «لقد كانت الأجساد في حالتها الكاملة حتى أنها كانت تحتفظ بالشعر والحواجب والأجفان، وهي لا تزال ترتدي الثياب التي كانت ترتديها في حياتها». (ص132).

إلى جانب هذه الحضارات الثلاث الشهيرة (المايا،

الأزتك، والإنكا) كانت هناك مجتمعات حضرية أخرى ذات مدنيات مختلفة المستوى في ما يعرف اليوم بأسماء دول الإكوادور وكولومبيا والبرازيل وغواتيمالا والهندوراس وغيرها، وتدل الدراسات الأنثروبولوجية والأركيولوجية بوجه عام على أن مراكز الحضارات الهند ـ أمريكية الكبرى إنما قامت في أمريكا الوسطى ومنها انتشرت شمالاً إلى ما يعرف اليوم باسم (الولايات المتحدة الأمريكية) حتى كندا، وتوغلت جنوباً حتى «أرض النار» Terra del fuogo أقصى جنوب أمريكا اللاتينية.

والحديث عن مخلفات هذه الحضارات لا يكاد ينتهي وهي مخلفات تبعث على الدهشة والعجب حتى أن كثيراً من الدارسين المأخوذين بما عثر عليه من نقوش ورسوم وتصاوير ومنحوتات ومبان وما إليها لم يصدقوا أن تكون المجتمعات الهند ـ أمريكية وصلت إلى ما تدل عليه هذه الآثار من تقدم فنسبوها إلى حضارات قديمة جدًّا، حضارات (غير أرضية) أنشأتها كائنات جاءت الأرض من الفضاء الخارجي وظلت أحقاباً من الزمان، ثم انتهت بعوامل مختلفة ذهبوا في تفسيرها كل مذهب، ومنهم من قال إن هذه المجتمعات وخاصة في أمريكا الوسطى إنما هي آثار حضارة (أطلنتس) Atlantis البائدة، وهي التي كان الفيلسوف اليوناني أفلاطون Plato أول من أشار إليها نقلاً عن كهنة مدينة سائيس Sais (صا الحجر)

المصرية وتبعه بعد ذلك مئات أو آلاف من الباحثين في أمرها[1]. غير أن عدداً لا يستهان به من الدارسين والعلماء يرون أن أصول هذه الحضارات يعود إلى (العالم القديم) ـ وبالذات ما كان في الشرق الأدنى أو الوطن العربي ـ ويبنون أحكامهم على مقارنات في مجالات المدنية الإنسانية تتشابه وتتماثل في الديانة واللغة والفنون والحياة الاجتماعية والمعتقدات الأسطورية والفولكلورية وغيرها.



في مجال اللغة كرس عدد كبير جدًّا من العلماء من مختلف الأقطار حياتهم للمقارنة بين لغات الأمريكتين ولغات (العالم القديم) ووصلوا إلى نتائج بالغة الأهمية، وإن اختلفوا في تفسير ما يصادفونه من مظاهر التشابه، وظهرت نظريات شتى لتعليله بالهجرات العتيقة عن طريق المحيط الأطلسي منذ أحقاب بعيدة. وقالت بعض الآراء إن هذه الهجرات كانت ممكنة لأن المحيط الكبير كانت تشغله قارة غرقت وبقاياها جزر

---

(1) انظر على سبيل المثال لا الحصر: Erich Von Daniken; Chariots of the Gods?, Returu to the stars.

Leonard Cottrell; Lost Cities.

Andrew Conias; Atlantis from legend to discovery.

Charles Perlitz; The mystery of Atlantis.

«الخالدات» أو «الأزور»، وكانت نقطة ربط بين العالمين القديم والجديد. ورأت نظريات أخرى أن القارات الثلاث (أوروبا وأفريقيا والأمريكتين) كانت ألصق بعضها ببعض قبل حدوث خلخلة جيولوجية فصلتها وباعدت بينها بالمحيط الأطلسي. وذهب آخرون إلى أن الهجرات إلى الأمريكتين كانت تحدث باستمرار، ونجد في العصور التاريخية شواهد من نقوش تركتها أقوام عبرت (بحر الظلمات) وخلفت آثاراً مكتوبة وآثاراً من لغتها في القارة.

ورغم أن الموسوعة البريطانية تزعم أن عدد اللغات التي كان يتكلمها ـ أو لا يزال يتكلمها ـ هنود أمريكا الجنوبية وحدها يبلغ 1700 لغة فإن هذا العدد يتناقص بقدر كبير إذا ضمت هذه (اللغات) في مجموعات أساسية كما فعل «غرينبرغ» Grenberg الذي حصرها في 87 عائلة لغوية وأعادها إلى 30 جذماً لغوياً، وقد هبط العالم سابير Sapir بلغات أمريكا الشمالية إلى 6 مجموعات فقط، بما في ذلك لغات الإسكيمو.

ومن المؤكد أن هذا الزعم في اختلاف اللغات الهند ـ أمريكية يستند إلى تعدد (اللهجات) مما هو معروف في كل لغة، بحيث لو طبقنا هذا على اللغة العربية مثلاً لرأينا مئات، بل آلافاً، من (اللغات) المحلية تختلف من قطر إلى قطر وفي القطر من منطقة إلى أخرى، وفي كل منطقة من بلد إلى آخر أو من

مدينة إلى سواها، ثم من قرية إلى غيرها. وفي القرية قد تختلف اللهجة من محلة إلى أخرى أو من بيت إلى بيت.

وقد جذبت النقائش التي يعثر عليها بين الحين والآخر في مواطن متفرقة من الأمريكتين اهتمام الباحثين وشدّت انتباههم بشكل مثير، وهي إذا كانت تدخل في المراحل التاريخية باعتبارها وثائق مكتوبة فإنها تدل على اتصال لم ينقطع ربما بدأ قبل التاريخ بمراحل طويلة، ومن أهم الباحثين في هذا المجال الأستاذ «باري فل» Barry Fell الذي اهتم منذ عقود بالنقوش التي يعثر عليها فوق الصخور والصلايات متناثرة هنا وهناك بأحرف مختلفة ورموز متعددة، لكن عدداً كبيراً منها ينبىء عن وجود عروبي (سامي) قديم (مصري، ليبي، كنعاني). وله دراسات في اللغة المقارنة بين لغات الهنود ـ الأمريكيين واللغات العروبية نشر بعضها في كتابيه (أمريكا قبل الميلاد: America B.C.) و(تغريبة أمريكا Saga America). كما أنه وتلاميذه والمتعاونين معه يوالي نشر وتحليل ما يعثر عليه من نقائش في مجلة Non Periodical Publication. وقصة اللوحة الكنعانية التي عثر عليها في البرازيل مكتوبة بالخط الكنعاني، وتتحدث عن وصول رجال من بني كنعان إلى تلك الأصقاع مشهورة، وقد أكد صحة ما جاء فيها علماء معروفون مثل الأستاذ سايرس غوردون Cyrus Gordon المتخصص في اللغة

الكنعانية (الأوغاريتية Ugaritic) وصاحب المؤلفات الكثيرة فيها، وفي الجزر العذراء Virgin Islands وجدت نقائش بخط التفناق Tifinag [1] الذي استعمله عرب شمال أفريقيا القدماء وكان مستعملاً في جزر الكناري Canary Islands ولا يزال التوارق يستعملونه حتى اليوم.

وهذا موضوع طويل جدًا وبالغ التعقيد كما أنه بالغ الأهمية، وسوف نكتفي هنا بتقديم شيء قليل فيما يتعلق بالمقارنة بين اللغة العربية ولغات الأمريكتين، وهو موضوع بحث مستقل نرجو أن يرى النور قريباً.

في سنة 1903إفرنجي أصدر «أرنولد ليسبرغ» Arnold Leesberg كتاباً عبارة عن معجم مقارن في منتهى الأهمية تحدث فيه عن الصلة بين اللغات العروبية (السامية) واللغات الهند أمريكية[2] قرر فيه وحدة أصل لغات القارة الأمريكية شمالها وجنوبها ورأى أنها انبثقت كلها من منطقة أمريكا

---

(1) رغم الاختلاف في مقارنة حروف هذا القلم القديم، فإن من الأرجح أن كلمة (تفناق) تعني (فينيقي) = بني كنعان، بسبب التحريف اللاتيني في أصل الكلمة. وقد يدل هذا على أن أصل هؤلاء القوم يعود إلى الكنعانيين الذين جاءوا إلى شمال أفريقيا منذ القرن التاسع قبل الميلاد، وربما قبله بكثير.

(2) A. Leesberg; A comparison between semitic - American laguages - Brill L. Leyden, 1903.

الوسطى mesuamerica في الأساس، ثم تفرعت واختلفت بحيث يصعب ردها إلى الأصول المشتركة أو يتعذر، وهو يستشهد بعدد كبير من الباحثين الذين سبقوه من مختلف الأقطار وبنتائج بحثه الخاص الذي استغرق سنوات طويلة. وبدراسة فيلولوجية مقارنة وصل إلى نتيجة تقول: **إن (اللغات) الهند ـ أمريكية تنتمي أصلاً إلى مجموعة اللغات العروبية (السامية) أو بتعبير أدق: إلى اللغة (السامية) الأم.** ثم قدم معجماً مقارناً بين (الساميات): العبرية، والعربية، السريانية، وبين ست لغات هند ـ أمريكية، يتألف من أكثر من ألف كلمة. وإذا كانت مقارنات «ليسبرغ» تعتمد على معرفته أساساً بالعبرية، ثم بقدر أقل على مقارنات بالعربية والسريانية، فإن من المدهش أن ثمة مفرداتٍ كثيرة في معجمه تكون المقارنة فيها أدق بالمصرية القديمة والأمازيغية التي تعتبر لغة قديمة هي الأخرى إلى جانب العربية.

وفي ما يلي نماذج من بعض مقارنات «ليسبرغ». ولضيق الحيز، نكتفي بإيراد الكلمة الهند ـ أمريكية بصرف النظر عن القبيلة أو المجموعة التي تتكلمها والمعنى بالإنكليزية والمقابل العربي.

الكلمة	معناها في الإنكليزية	المكافىء في العربية
huaya	air	هواء
ecum	to amass	كوم

المكافىء في العربية	معناها في الإنكليزية	الكلمة
حي/ حيوان	animal	huyhua
وضف/ ضيف/ أضاف	to assemble	usopu
وزن	balance	aysana
قرع/ أقرع	bald	kera
رحض	to bathe	haritha
برأ = خلق	being	beira
بطن	belly	phatanca
دم	blood	dell
بقر/ بكر	to be born	pacari
فت/ فتت	to break	piti
شم	to breathe	samay
أخ	brother	oga/aog
قرأ	to call	acaora
بس/ بسة	cat	mici/misa
غل	chain	cholal
تب	chief/head	Zippa/tipa
أخو/ أخ	chieftain	aga
نقي	clean	nacca-qui
قر/ قرة	cold	Kara/Kiri
ولول	to complain	yail/yala/ioulal
قَصَّ	to cut	Kausa
ليل	dark	alala

الكلمة	معناها في الإنكليزية	المكافىء في العربية
batza	daughter	بت/ بنت
pakari	dawn	بكر/ بكور
mota	dead	مات/ ماثت/ ميت
occara	deaf	وقر
ylad-in	decendant	ولد
pattah-gi	to dig throgh	بتع/ فتق
assel/assol	earth quake	زلزل/ زلزال
pallatha	to escape	فلت
ariabou	evining	غرب
nani	eye	عين
ba, baba, abag	father	أب
euna, inna	fish	نون
isilla	fluid	سيل/ سائل
gene	flute	قنا/ قناة
kayra	frog	قرة
mollo-ko	full	ملىء
ank	giant	عنق
nta-into-nuattia	to give	أنطى
ynda	to give	أدى/ أندى
teba, tobou	good	طاب/ طيب
uhuase	goase	وز/ وزة
nanay, nanna	to grieve	نأنأ

الكلمة	معناها في الإنكليزية	المكافىء في العربية
taka	to hammer	دق
kab-Cabo	hand	كف
kana	to happen	كان
hata	to hasten	حث

المثير أن يعثر المرء في موطن آخر على كلمات عربية يقدمها كتاب اهتم بقضية «أطلنطس» القارة المفقودة:

ففي كتابه (سر أطلنطس The Mystery of Atlantis يعرض «تشارلز بيرلتز» Ch. Berlitz للصلة بين اللغات مهما بدا من تباعدها في الزمان والمكان، وبالذات بين لغات الأمريكتين والعالم القديم. وهو يذكر أن كلمة (ملكو malko) في أمريكا الوسطى هي ذاتها (ملك) العربية بنفس الدلالة. وفي لغة المايا كلمة (ثِلاك: thellac) تعني السائل، غير الجامد، وتقابل اليونانية (ثِلاَّسا: thellasa) بمعنى: البحر، وعند الأزتك كلمة (ثِلُوك: theloc) = اسم إلّه البحر، وصلته بالربّة الكلدانية (ثلاث thalath)، واضحة. ونحن نضيف العربية: طلس = مظلم، داكن، أي: البحر. وفي لغة قبيلة النهواتل Nahuatal، كلمة (ثيو) بمعنى: إلّه، رب. وهو يقارنها باليونانية (ثيو: theo) ومعناها الأصلي (نور). ونحن نقارنها بالعربية (ضوء). وفي لغة (الباسك Basque) هناك كلمة (قاروا: qarua) بمعنى:

ندى، بينما تعني الكلمة ذاتها «الرذاذ» عند قبيلة (الكويشوا: Queshua) الهند ـ أمريكية، وهي دخلت الإسبانية بهذا المعنى الأخير. ونحن نضيف أن في العربية مادة (قرر) وهي ثلاثي (قرّ) ومنها: القر = البرد عامة، والقررة والقرارة = الماء، والقر = صب الماء دفعة واحدة، والقارورة = وعاء الماء أو السائل... الخ. وعند نفس القبيلة كلمة (تِبِكْ: tepec) بمعنى: تل، هضبة، رأس جبل. وهو يقارنها بالتركية في أواسط آسيا: (تپي: tepe). ونضيف هنا المصرية القديمة (ت ب: t p) والعربية (تبة) بذات الدلالة.

وهو يقارن بين الويلزية (coruryg) والماندية (نسبة إلى لغة mande الهند ـ أمريكية) التي كانت تقطن منطقة مِسُّوري (missouri) وبادت تقريباً بمرض الجدري حوالي سنة 1830 في كلمة (كوريج: coorig) بمعنى: قارب في اللغتين. ونقارنها نحن بالمصرية القديمة (ق ر Q R) والعربية (قرقور) رباعي أو مضاعف (قر)، بمعنى: قارب طويل. وفي الويلزية كلمة (بارا Barra) وفي الماندية (بارا Bara) بمعنى: خبز. ونقارنها بالعربية (بُرّ) بمعنى حنطة وهي ما يتخذ منها الخبز. وبينما نجد كلمة (أم) في أغلب اللغات البشرية لفظة مشتركة جذرها الأصلي حرف (الميم)، كما في العربية، فإن حرف التاء هو جذر اللفظة المعبر عن (الأب) في اللغات الهند ـ أمريكية، إذ

نـجـدهـا فـي صـيـغ : intati, tate, taite, totay, tuchchu, até، . . . الخ. وهذا بالضبط يقابل ما في اللغة المصرية القديمة: أت، إت: it - at = أب، وفي العربية: أتّ، آت، بمعنى: غلب، مسيطر، أي (الأب) رئيس الأسرة ورب العائلة.

ويذكر المؤلف أن في اللغة الماندية كلمة (ماه mah) بمعنى: عظيم، ونحن نلاحظ أنه في السنسكريتية توجد (ماها maha) = عظيم، وهي في المصرية القديمة (م س m s) وفي الكنعانية (م ج m g) وفي الفارسية (ماگو magu) وفي اليونانية (ماگوس magos) وفي لهجة عرب السودان حتى اليوم (مَكْ mac) بمعنى: زعيم، عظيم. وفي العربية الجذر الثنائي (مز)، ومنه: المزُّ = الفضل، الشرف أي العظمة والزعامة، وبمعنى (التميز والامتياز) وهذا كله عن طريق إبدال الحرف الأخير بين مختلف اللغات.

وقد دخلت كلمات وألفاظ هند ـ أمريكية كثيرة في اللغات الأوروبية المعاصرة، وبعضها دخل العربية بعد أن اكتسبت الصيغة العالمية. ويذكر «ماريوپاي» في كتابه (قصة اللغة)[1] أن أكثر من نصف أسماء الولايات المتحدة الأمريكية هندية. منها

---

(1) Mario Pei, The story of language P. 63-66.

مثلاً: داكوتا، تنسي، أيوا، أوكلاهوما، كانساس، متشغان، كنتكي، اللنوي، تكساس. وأسماء مدن من مثل: شيكاغو، منهاتن. وأسماء أنهار مثل: مسيسبي، شلالات نياغرا. أما في أمريكا الجنوبية، فإن أسماء المواقع الهندية لا تكاد تحصى، وحتى أسماء جمهوريات مثل: كوبا، أرغواي، برغواي، غواتيمالا. . . الخ. وهناك، كما ذكرنا، مفردات هند ـ أمريكية في اللغات المعاصرة، فيما يلي بعض منها، نقدمها مع مقارنة بعضها بما في العربية حين يتيسر:

totem: طوطم = وهو الحيوان المقدس الذي يرمز به لمعبود أعلى، وتسمى هذه العبادة باسم (الطوطمية)، وهي مرحلة مرت بها المجتمعات البشرية كلها، ولا تزال آثارها في رموز الأمم والشعوب الآن، مثل الصقر العربي، والأسد البريطاني والنسر الأمريكي. . . الخ.

tobaco: التبغ = التاباك = التنباك = الطباق. وفي العربية هناك شجر يسمى (الطباق) قال عنه (اللسان) إن له ورقاً طوالاً رقاقاً خضراً يتلزج إذا عمر، وله نور أصفر مجتمع.

maize: الذرة = وفي الإسبانية amaiz من الكوبية، وفي الأمازيغية (البربرية) يسمى الشعير (تمزين) وهي صيغة جمع، الواحدة منها مؤنثة (تمزت) والتاء في أول الكلمة وآخرها

للتأنيث، والجذر هو (مز) يقابل بالضبط الكوبية (maiz) التي انتقلت إلى الإسبانية ومنها إلى بقية اللغات الأوروبية. وفي رأينا أن الكلمة مشتركة بين شمال أفريقيا وأمريكا الوسطى، أطلقت على الذرة وعلى الشعير لغلبة أحدهما على طعام السكان. ولنا مثل في كلمة (عيش) العربية إذ تطلق في مصر على (الخبز) وفي الخليج على (الأرز) وفي ليبيا على (العصيدة) لغلبة نوع الطعام في كل منطقة.

tomate: طماطم. من المكسيكية (tomatl)، ولما كان العالم القديم لا يعرف هذا النبات، فقد اخترعت له صفة صارت اسماً في الفرنسية (pomme d'or: التفاح الذهبي) وفي الإيطالية (pomo d'oro) صارت في لهجة عرب الشام (بندورة).

batata: بطاطا. هذا هو الأصل الهند ـ أمريكي (بطاطا) صارت في الإسبانية (patata) ثم تحولت إلى (potatoes) في الإنكليزية، سماها الفرنسيون (pomme de terre أي تفاح الأرض).

chocolate: من المكسيكية (chocol-aat) تعرفها باسم (الشكلاتة) ويقول معجم أكسفورد الاشتقاقي إن معناها الأصلي: الأسمر الداكن dark brown ولا صلة لها بالكاكاو

cocoa, cacao، والحليب: lait. وفي مادة (شكل) في العربية نقرأ: الأشكل الذي يخلط سواده حمرة أو غبرة، والأشكل والأكحل بمعنى المظلم الداكن واحد. ووصف الرُّبّ بالأشكل لأنه من ألوانه، والرُّبّ أشبه شيء بالشكلاتة، واسم اللون: الشكلة، ويقال: فيه شكلة من سمرة وشكلة من سواد... الخ.

jaguar: نوع من الفهود، من الهند ـ أمريكية (yaguara). ويقول ماريوپاي في كتابه (قصة اللغة) ـ ص112، إنها نفس جذر الكلمة الهندية الأخرى carioca بمعنى: يلتهم، يستهلك. هل نقارنها بالعربية (جرع؟..).

Jagara: سكر أمريكي أسمر خشن متخذ من عصير النخيل. كلمة هندية الأصل حسب معجم أكسفورد. (عربيتها واضحة: سكر).

sagamore: سيد، زعيم، من الهندية (sachew) يمكننا مقارنتها بالمصرية القديمة (سخم) بمعنى: قوي، شديد، وهي صفة الزعامة. وفي العربية تؤدي مادة (سخم) نفس الدلالة.

tepee: خيمة الهندي ـ أمريكي المخروطية الشكل، المرتفعة نقارنها بالعربية (تب)، (تبة): مرتفع، عال.

cassava: نوع من النبت يصنع منه دقيق الخبز، كلمة هاييتية (حسب معجم أوكسفورد) وفي (معجم ويستر) أنها

دخلت الإسبانية في صورة casaba وفي الفرنسية cassave، وأصلها هايتي kasabi نقارنها بالعربية: قصب = الدخن، الذرة الرفيعة.

Quipu: بديل قديم عن الكتابة عند هنود البيرو، وذلك بعقد خيوط ذات ألوان مختلفة تدل على الكلمات أو الأعداد، أي (عقدة) ـ وفي مادة (كبب) العربية معنى الربط والغزل، ومنها (كبة الغزل).

canoe: قارب يتخذ من جذع شجرة مجوف، من الهايتية canva. وهذه نقارنها بالجذر العربي (قنا) ومنها: القناة = العصا المجوفة.

وما من ريب في أن دراسات لغوية مقارنة، شاملة وموسعة، يقوم بها علماء متخصصون متحمسون سوف تؤدي إلى نتائج مدهشة قد تبدو شديدة الغرابة في بداية الأمر، غير أنها ستغير من مجرى أفكار سائدة عن أهل الأمريكتين الأصليين، خاصة فيما يتعلق بصلاتهم بشمال أفريقيا وبقية أقطار الوطن العربي الكبير.

* * *

في الفصل الختامي من كتابه (هنود الولايات المتحدة

الأمريكية) بعنوان: (هل عاش الهندي سدىً؟) يكتب «كلارك وسلر»[1].

عندما نستعيد مشهد إبادة الهندي والزحف الأوروبي الشرس ساحقاً حياة الهنود في كل أرض، مضحياً في الوقت نفسه بدم عزيز من البيض لبلوغ هذه الغاية، فإننا نسأل: هل عاش الهندي (الأمريكي) سدى؟ هل كان لكل ما فعل، وجاهد وفكر فيه مدة عشرة آلاف عام، ليطمس في ثلاثة قرون؟ ألم يكن من المعروف الذي جاء في غير موضعه من قبل المنتصرين أن يضعوا ضحاياهم المغلوبين على أمرهم في المعتقلات لكي تفنيهم الأمراض والجوع والفقر، ثم يفعلون كل ما يمكن للحفاظ على حيواتهم لمجرد أن يعيشوا في صورة أقليات؟.

هذه الأسئلة وغيرها قد تنبثق لتعكر هدوء بالنا، ولكن ما من إجابة شافية لها. فإن ثمة ـ على كل حال ـ تصورات خاطئة كثيرة. ويمكننا أن ننظر في الشواهد لكي نرى ما حققه الهندي وما أسهم به في طريقة الحياة الأمريكية، وسيكون عملاً أيسر لو استرجعنا في الذهن أولاً مجمل منجزات العالم القديم. فقد كان البناء الاقتصادي قائماً على القمح والماشية والخيول

---

(1) C. Wissler; The Indians of the United States - PP. 326-330.

والعجلة والمحراث والكتان والكتابة والطباعة والحديد والمسكرات، وأشياء أخرى.

إذا نظرنا نحو العالم الجديد وجدنا قائمة مشابهة بقدر ما من هذه الأساسيات مثل الذرة والبطاطا والكلاب والقطن والتبغ... الخ. فهناك إذن نوع من التوازي كما أن هناك نوعاً من التباين بين حضارتي العالمين. فقد كانت المدنيات الهندية في المكسيك والبيرو مؤسسة على الزراعة، وعلى رأسها الذرة باعتبارها أهم غذاء، بينما كانت الحنطة أهم الغلال في العالم القديم. وبينما كان القطن في أمريكا أهم ألياف النسيج كان الكتان في أوروبا. ونظم الكتابة الهندية المستنبطة الوحيدة، وتمكن مقارنتها بما في العالم القديم، كانت عند المايا في يوكاتان yukatan وبعض قبائل وادي المكسيك وبوجه خاص عند الأزتيك.

ولعل أعجب شيء هو غياب العجلة في العالم الجديد. وكان أقرب شيء إليها المغزل الذي عرفه الهنود الأمريكيون، والأطواق المتدحرجة التي استخدموها في الألعاب. كذلك، لم يعرف خزافو العالم الجديد عجلة الفخاري. وإذا لم يعرف هنود أمريكا استعمال العجلة الدوارة في النقل فإن الألعاب ذات العجلات كانت معروفة في وادي المكسيك. ونلاحظ أنه لم

يكن في القارة الأمريكية حيوانات صالحة للجر حتى جاءت الخيول. كانت الكلاب هي حيوانات الجر والنقل، وقد تحدد استعمالها وضاق نطاقه بسبب صغر أحجامها.

ورغم أن خام الحديد كان موجوداً، فإن الأدوات الحديدية لم تعرف. كان النحاس مستخدماً بشكل واسع في البيرو والمكسيك والولايات المتحدة، كما كان الذهب والفضة والرصاص والبلاتين والقصدير، عند القبائل كلها، وفي البيرو كان يصنع البرونز بإذابة النحاس والقصدير في مصهر واحد، وزيارة واحدة لمتحف جيد تظهر أن صنّاع المعادن في هذه القبائل لم يكونوا في حاجة لمعرفة الكثير من الأوروبيين. فقد عرف هؤلاء الصناع ما قبل كولومبوس كيف يطرقون الأسلاك، وأدق سلك عرف كان قطره 0,008 من البوصة. ولا تزال براعتهم في اللحام عن طريق الإحماء والطرق تثير إعجاب صناع المعادن عندنا، كما عرفوا اللحام بالقصدير. وكانت أطراف الأدوات النحاسية تقوى بوساطة (الطرق على البارد) وكانت النتيجة أن أصبحت أقوى من أدوات الحديد المطاوع. وحين يعالج البرونز بهذه الطريقة يصير أقسى وأصلب من الحديد. وحين عرف أن هنود ما قبل كولومبوس في أمريكا الجنوبية عالجوا البلاتين بمزجه بالذهب وإعادة إحمائه وطرقه وإضافة سبائك النحاس إليه، أصيب صناعنا بالدهشة. وهذا يعني أن

عدّاني العالم الجديد ابتدعوا طرقاً في مجال معالجة المعادن لم تكن معروفة لدى عداني أوروبا في الفترة ذاتها من الزمان.

ونسمع أحياناً أن الهندي كانت تعوزه القدرة على الإبداع وإن يبدو أن اختراعات كانت بطريقة غامضة مجلوبة من العالم القديم. والنقطة الوحيدة الضعيفة في هذه الحجة أنه يمكن تقديم قائمة من الإبداعات لم يعرفها العالم القديم. فقد ابتدع هنود أمريكا منذ زمن بعيد فن سبك البلاتين، ونظام الحساب المایاوي (نسبة إلى شعب المايا) وصناعة الصابون بمادة الكالب kelp، والجرار المصغرة، وغليون التبغ، وأراجيح الشجر، وكرات المطاط، والزلاجات. وفي عالم الزراعة: الذرة والتبغ والبطاطا والطماطم. وفي ميدان الطب: المسهل المسمى ipecac والمنوم المتخذ من نبات الكوكا coca (وهو المستعمل في مشروب الكوكاكولا الشهير) وعلاج الملاريا من نبات الكينا. وهناك قائمة طويلة من استنباطات أو إبداعات هنود أمريكا في ميادين الصناعة والزراعة والبناء والفنون والمساحيق والألوان والثياب والأسلحة. . . الخ. مما لا يتسع المجال لعرضه، وهو موضوع دراسات مطولة وبحوث واسعة.



تقول (الموسوعة البريطانية) إن التقديرات العشوائية لسكان القارتين في حوالي سنة 1200إفرنجي، تراوحت بين 75 مليون

و50 مليون نسمة، وقد ارتؤي أن هذا رقم مبالغ فيه، بينما قدره آخرون بحوالي 8 ملايين ونصف المليون، وهذا رقم قليل جداً. وهي ترتضي أن يكون الرقم المقبول حوالي 25 مليون نسمة. (ولنلاحظ أن هذا التقدير لنهاية القرن الثاني عشر للميلاد).

وتقدر الموسوعة ذاتها بقايا هذه الأمة (سنة 1970) بنحو 17 مليون نسمة في أمريكا الجنوبية والوسطى، ونحو 1,25 مليون في أمريكا الشمالية، وتعلق: (إن العائق الأكبر في سبيل إحصاء أكثر دقة يكمن في أن بعض مواقع القبائل حينما أمكنت زيارتها كانت قد أفرغت تماماً من سكانها بفعل الأسلحة والأوامر من الأوروبيين).

أما الأسلحة الأوروبية وفتكها بالهنود الأمريكيين، فإن مجلدات ملئت عن أكبر فظائع القتل وأبشع أنواع الإفناء دون تمييز، حتى محيت قبائل كاملة من الوجود محواً تاماً. وكانت الأسلحة النارية البارودية من مدافع وبنادق ومفرقعات تأتي على قرى بأجمعها في أشرس حملة إبادة عرفها التاريخ. وكان المثل السائر على ألسنة الغزاة:

(إن الهندي الوحيد الطيب، هو الهندي الميت).

(the only good indian is a dead indian!).

ولقد قاوم الهنود الأمريكيون ببسالة غزاتهم أكثر من أربعمائة عام، ودافعوا عن أرضهم وحريتهم وعن تراثهم

وثقافتهم بروح عالية من الشجاعة والبذل، وشهد لهم أعداؤهم بالإقدام والجسارة، ولم يسلّموا إلا بعد أن تكاثر عليهم المهاجرون ودحرتهم الآلة العسكرية المتفوقة.

وأما الأمراض فإن (الأرض الجديدة) لم تكن تعرف أوبئة أوروبية، ولم يكن السكان ذوي مناعة ضدها، كالجدري والكوليرا وحتى السعال الديكي، فقضت على عدد ضخم من السكان.

وقد استخدم الغزاة كل سلاح لكي يستحوذوا على الأرض الجديدة الرائعة، فنشروا تعاطي المشروبات المسكرة، وأغروا السكان الأصليين بشراب الويسكي والروم لكي يحولوهم إلى (أمة سكرانة) تماماً كما فعل البريطانيون حين نشروا الأفيون بين أهل الصين لكي يسيطروا على تلك البلاد. ومن المعروف جيداً أن كندا احتلت عن طريق الويسكي، حين كان يغرى به زعماء الهنود الأمريكيين ليتنازلوا عن الأرض ويبيعوها للقادمين الجدد حين لم يستطيعوا افتكاكها بالقوة.

وتتحدث (الموسوعة البريطانية) عن الزحف الأوروبي بشراء الأرض شراء صورياً أو وهمياً ـ خاصة في أمريكا الشمالية ـ عاماً بعد عام وعقداً بعد عقد، وعن معاهدات تعقد ثم ينقضها الغزاة بمجرد أن يحسوا بالقوة الكافية لفرض شروطهم، فيبتلعوا مزيداً من الأرض ويستولوا على أفضل

الأراضي الزراعية، ثم يضيقون الخناق على السكان الأصليين حتى يحصروهم في مناطق محددة وهي عبارة عن معتقلات لا يخرجون عن نطاقها (نفس السياسة التي اتبعها الصهاينة في فلسطين، ونفس التكتيك، ولا عجب).

لكن، رغم كل شيء، ورغم الإبادة والتقتيل، ومحاولة تضييع الميراث الثقافي للهنود الأمريكيين، ورغم التجهيل والإفقار والمعتقلات ومسح الشخصية وكل البلاء الذي صُبَّ على رؤوسهم، فإن هذه الأمة لم تمح تماماً؛ فهي قاومت وثبتت وفي عصرنا الحديث بدأت تلتقط أنفاسها وتستعيد ماضيها وتراثها وتشعر بكينونتها، وتحسّ بوجودها. وهناك حركات في القارتين تلملم أطراف الأمة المنكوبة للحفاظ على الميراث المشترك فيما بين أبنائها، وتطالب بحقها في الوجود القومي وإعادة بناء ذاتها حسب إرادتها محافظة على ذاتيتها وخصوصيتها القومية.

هذه الحركة تحتاج إلى دعم، كما تحتاج إلى وعي بها وبأهميتها، وهي لا شك واجدة في الشعوب التي طالما غلبت على أمرها وعرفت معاني القهر والاستلاب، سنداً حقيقياً وإدراكاً فعلياً لعمق مأساة الهنود الأمريكيين ووحشية الجرائم التي ارتكبت في حقهم، وضرورة أن يكفِّر مرتكبوها عنها، كما يجب أن يكفِّروا عن خطاياهم الكثيرة في حق شعوب أخرى.

عن البابا شنودة.. والقديس مرقص وتداعيات لغوية وتاريخية كثيرة(*)

كان من آخر ما قرأت في اللغة العربية، ولعله آخر ما صدر عن (المسألة القبطية) كتاب غالي شكري عن (الأقباط في عالم متغير).

ولا يجوز في مثل دراستنا اللغوية هذه مناقشة ما ورد في الكتاب من وجهة نظر دينية أو سياسية أو ما جاء من آراء وتعليقات. ولكن الذي شدني ما ذكر في الصفحة الرابعة والخمسين من تحليله لاسم (شنودة) وهو لقب حبر الكنيسة القبطية الأعظم (شنودة الثالث)، إذ ينقل عن الدكتور رؤوف حبيب في كتاب (تاريخ الرهبنة والديرية في مصر وآثارها الإنسانية على العالم) أن أصل الاسم مصري قديم، وقد كتب في القبطية (شينوتي) ثم في العربية (شنودة) ولكن جاء على

(*) نشرت في مجلة (الفصول الأربعة). العدد 91 سنة 2000إفرنجي.

لسان أحد علماء القبط أن اسمه الحقيقي (خنودة) أو (عنخنودة) وترجمته العربية (حيٌّ هو الله). انتهى النص.

تحليل الاسم:

في هذا الكلام شيء من الصحة، لكن فيه نقصاً أود أن أكمله.

وأول ما نلاحظه هذا الإبدال بين الشين في (شنودة) والخاء في (خنودة) وهي ظاهرة معروفة جداً في اللغة المصرية القديمة، تحل الشين محل الخاء أو العكس في كثير من الألفاظ حتى أن العلماء (غاردنر.. مثلاً) يقررون أن أحد الصوتين يقوم مقام الآخر، والأمثلة على ذلك كثيرة، وهو ما يحدث في العربية، إذ تقول: خرم وشرم، خرق وشرق، خملة وشملة، خرّ وشرّ (الماء) على سبيل المثال، والدلالة واحدة.

بيد أن (شنودة) ـ وهي ذاتها (خنودة) ـ أصلها، كما ذكرنا، (عنخنودة) مركبة في حقيقتها من مقطعين (عنخ + نودة)، وتحليلها كما يلي:

(1) عنخ: في المصرية القديمة = حياة، عيش. وهي ترد كذلك (عنش) بتعاقب الشين والخاء المعجمتين، ومكافئها في العربية (نعش) بالقلب المكاني، أي تقديم حرف وتأخير آخر في نفس الجذر، بمعنى: حي. غير أن

الاحتفاظ بترتيب الحروف (أو الأصوات) في المصرية (عنش) (= عنخ) يؤدي إلى العثور عليها في اللغة الكنعانية (نقوش رأس شمرا) بإبدال العين همزة (أنش). وفي الأكادية (نشو) ـ بسقوط العين ـ وفي العبرانية (أنوش) بالهمزة بدلاً من العين ومدِّ النون المضمومة، وهي التي تحولت في الإنكليزية إلى (إنوك) Enoch والحرفان ch في نهاية الاسم ينطقان قريباً من الخاء (إنوخ) مما يبرهن مرة أخرى على تعاقب الشين والخاء، وكذلك هو النطق في العبرانية مما أدى إلى الخلط بين (أنوش) و(أنوخ) و(أخنوخ) في التراث الإسلامي المتأثر بالإسرائيليات في مجال الحديث عن الرسل الأولين، والمعنى في كل حال: الحياة/ الحي. العيش/ العائش. العربية (أنس) ومنها: إنس، إنسان.

في اللغة النوبية نجدها (عنج) وتنطق (أنج) وترادف هذه الكلمة في النوبية كلمة أخرى هي (أج) ـ بسقوط النون ـ والجيم تنطق معطشة جداً كنطق حرف J في الفرنسية مثلاً، بمعنى (عيش) وأقرب شيء إليه فعل الأمر الموجه إلى المفرد المذكر: عِش. وفعل الأمر في بعض الآراء هو أصل الأفعال، يقارب هذا ما في اللهجة الأمازيغية (البربرية) في شمال أفريقيا: (أشي)، حياة، طعام، عيش.

ونلاحظ أن كلمة (عيش) تعني نوع الطعام الغالب على أهل القطر، فهي تعني الخبز في مصر والعصيدة في ليبيا والكسكسي في الجزائر والأرز في منطقة الخليج.

(2) نوده: الأصل في القبطية: (ندِي) و (نتي) أو بدقة أكبر (نُويْتي) و(نُويْدي) noyte بإسقاط الراء، والأصل الأبعد في القبطية أيضاً (ندر) و (نتر) والحكم في تعاقب التاء والدال يرجع إلى الحرف القبطي نفسه الذي يُنْطَق تاءً ودالاً على حد سواء، وهو الحال ذاته في الرموز الهيروغليفية التي كتبت بها هذه الكلمة وقد نقل حرفها الأوسط إلى حروف اللاتينية في صور مختلفة مع الاتفاق على وقوعه بين النون (الحرف الأول) والراء (الحرف الثالث) مع ملاحظة انعدام حروف الحركة أو الصوائت في الهيروغليفية كما هو الحال في الكتابة العربية، فنجدها تكتب هذا:

نتر، نذر، نثر، ندر، نتشر، ندجر، نتجر، نشر، ندزر، نچر، نجر، نكر، نتزر.. الخ.

والسر في هذا الاختلاف يرجع إلى حقيقة بسيطة هي أن علماء الغرب لم يفطنوا إلى أن الحرف الثالث (الأوسط) في الكلمة يقابل بالضبط الحرفين العربيين (ظ) و(ط) وهما لا يوجدان في اللاتينية، كما اختفيا من القبطية بتأثير اليونانية وإن ظل حرف الطاء ملاحظاً في نطق بعض الكلمات.

فلنضع حرف الظاء المشالة مكانها لترى. ها نحن نقرأها: (نظر). فلنحركها لينتج لنا اسم الفاعل: (ناظر)، وهذا هو الأصل الفعلي للكلمة المصرية القديمة التي تطورت إلى معنى (الإله) أو الرب المعبود باعتباره الذي يرى كل شيء ولا يخفى عليه شيء ويحرس كل شيء ويرقب كل شيء، ممثلاً في الشمس (رع) (= الراعي، الرائي).

فإذا وضعنا حرف الطاء بدلاً من الظاء كانت (نطر) ومنها: الناطر، الناطور، أي الحارس المراقب الراعي، وشهير جداً بيت أبي الطيب المتنبي الذي يقول فيه:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها

وقد بَشِمْنَ ولم تَفْنَ العناقيدُ

والنواطير: الحرّاس، جمع (ناطر) ـ وفي الدارجة الشامية: ناطور.

هذا إذن منشأ اسم (شنودة) في عروبته الأولى: عنخ نتر ← عنش ـ نوتي ← شنوتي ← شنودة = عيش الناظر، أي حياة الرب، أما ترجمة الاسم إلى (حيّ هو الله) فترجمة ركيكة وغير دقيقة، الأصوب أن تكون (حياة الله) ـ اسم (حياة) وليس صفة (حي)، وهو لقب لا حرج فيه، فإن لدينا مثالاً جلياً في ألقاب زعماء الشيعة (آية الله) و (روح الله) المقابلة تقريباً لـ (حياة الله).

ولا حرج، مرة أخرى، إذ (الروح) و(الحياة) مقترنتان، فكلنا من آدم وفي كل منا شيء من (روح الله) إذ سواه الله ثم نفخ فيه من روحه ـ أي بعث فيه الحياة. وهو ـ جل جلاله ـ الذي آتى عيسى ابن مريم البينات وأيده بروح القدس ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، كما أنه ـ عز وجل ـ ذكر أولئك الذين ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ ولكن علمنا في هذا الموضوع البالغ الحساسية والتعقيد يظل قاصراً محدوداً ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

تتبُّع:

البابا شنودة هو رئيس الكنيسة القبطية المرقصية (أو المرقسية) الأرثوذوكسية، والنسبة الأخيرة مأخوذة عن اليونانية: أرثو (الرأي) + دوكسا أو: دوكسوس (الصواب) = الرأي الصواب، أو العقيدة السليمة، فلماذا النسبة إلى (مرقص) أو (مرقس) ومن هو؟

يقول غالي شكري في كتابه المشار إليه:

(وأرجح الاحتمالات التاريخية أن اعتناق مصر للمسيحية قد تم على يدي أحد أبنائها وهو القديس مرقص الذي ولد في مكان ما من الصحراء الغربية يتبع الآن ليبيا، ولكنه رحل إلى فلسطين

وتتلمذ على المسيح مباشرة، وعاد إلى مصر ليكتب إنجيله المعروف باسمه، لذلك تحيل أغلب الكتابات إلى أن مصر قد عرفت أول كنيسة في التاريخ، وقد كانت (غرفة) في بيت القديس مرقص هي هذه الكنيسة الأولى) (ص17).

أما القول بأن القديس مرقص (وُلد في مكان ما من الصحراء الغربية يتبع الآن ليبيا) فهو تعميم غير دقيق تماماً.

فالرجل كان يتكلم اليونانية وبها كتب (إنجيله) الذي يعتبر أقدم الأناجيل زمناً وثانيها بين الأناجيل الأربعة المعتمدة، فلا بد أنه نشأ في بيئة تسود فيها اللغة اليونانية، ولم تكن تلك البيئة إلا مدينة (قورينا) التي تعرف الآن باسم (شحات) في الجبل الأخضر على بعد حوالي 230 كيلو متراً شرقي بنغازي. وكانت قورينا يونانية الثقافة والفكر، تحت حكم الرومان عند ظهور المسيح، كما أنه من المعروف أن القديس مرقص شرح بعض المفردات اللاتينية باليونانية مما يدل على معرفته باللغتين.

وأما وجوده في فلسطين فلم يكن مستغرباً، إذ نعثر على أسماء قورينيين (في الترجمة العربية: قيروانيين ـ وهذا أحد الأخطاء في الترجمة الركيكة) كثيرين منهم، على سبيل المثال «سمعان القوريني» الذي يذكر (إنجيل مَتَّى) و(إنجيل لوقا) أنه سُخر لحمل صليب المسيح في طريقه إلى الصلب. أما مرقص فيبدو أنه يعرفه معرفة شخصية قريبة ربما لأنهما من بلد واحد،

فيذكر أن «سمعان» هذا هو بالتحديد والد كل من (الإسكندر) و(روفس) (مرقص، الإصحاح 15) كما جاءت إشارات في (أعمال الرسل) إلى أنه «كان منهم (أي من المشتتين بسبب الاضطهاد الروماني) رجال قبرسيون (قبارصة) وقيروانيون (قورينيون) الذين لما دخلوا أنطاكية كانوا يخاطبون اليونانيون مبشرين بالرب يسوع» (الرسل: 11/ 19)، وكان في أنطاكية في الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون: برنابا وسمعان الذي يدعى (نيجر) (أي: الملقب بالأسود) ولوقيوس القيرواني (القوريني)، (الرسل: 13/ 1).

أما لوقيوس القوريني فواضحة نسبته، واسمه (لوقيوس) هو الذي اشتهر به بعد ذلك الكاتب والفيلسوف اللوبي القديم (لوقيوس أبو ليوس). وأما الإشارة إلى تلقيب سمعان بالأسود فقد تدل على بشرته السمراء المعروفة في ليبيا منذ أيام قبائل (التحنو) الليبية وحديثها طويل جداً منذ بواكير العصور الفرعونية، ويمكن أن نفهم أنه ينتمي إلى ليبيا خاصة عندما يقرن برفيقه (لوقيوس القوريني). والاسم الأول (برنابا) معروف جداً في التاريخ المسيحي وينسب إليه إنجيل تنكره الكنائس المسيحية، ويبدو دوره واضحاً في صحبته لـ(شاول) الذي صار يعرف بعد ذلك باسم (القديس بولس)، وفي (أعمال الرسل) نقرأ خبراً ذا دلالة:

«ثم بعد أيام قال بولس لبرنابا: لنرجع ونفتقد (نتفقّد) إخوتنا في كل مدينة نادينا فيها بكلمة الرب كيف هم. فأشار برنابا أن يأخذا معهما يوحنا الذي يدعى مرقس، وأما بولس فكان يستحسن أن الذي فارقهما من بمفيلية ولم يذهب معهما للعمل لا يأخذانه معهما.

فحصل بينهما مشاجرة حتى فارق أحدهما الآخر، وبرنابا أخذ مرقس معه وسافر في البحر إلى قبرص، وأما بولس فاختار سيلاً وخرج مستودعاً من الإخوة إلى نعمة الله» (أعمال الرسل 15/36 ـ 40).

من الواضح هنا انحياز برنابا ـ الذي كان لاويّاً قبرصي الجنسية (أعمال الرسل: 4/26) ـ إلى مرقس ـ الذي كان يعرف باسم (يوحنا) ـ ضد بولس الذي اختلف مع مرقس في بمفيلية وأبى أن يتخذه صاحباً، ولعل هذا هو منشأ الخلاف بين الرجلين، ثم منشأ الخلاف بين الكنيستين الغربية (الرومية) والشرقية (المصرية).

وقد فعل برنابا هذا مع أن (الروح القدس) قال: «افرزوا برنابا وشاول (بولس) للعمل الذي دعوتهما إليه»، (أعمال الرسل: 13/2)، وكان يوحنا (مرقس) يرافقهما، ثم فارقهما حين قصدا بمفيلية في دعوتهما التبشيرية، وعاد إلى أورشليم (القدس)، ثم التقى الثلاثة في أنطاكية.

على أن التضامن الإسكندري/ القوريني كان منذ البداية في محاورة استفانوس (أعمال الرسل: 6/ 9) فكأنما هو التضامن المصري/ الليبي منذ القدم.

مرقص في ليبيا:

تقول الدراسات التاريخية/ الدينية إن (مرقص) كان مبشراً بالمسيحية متحمساً لها، وإنه بعد أن كتب (إنجيله) بمدينة روما بإملاء أمير الرسل (بطرس) أُوفد للتبشير في الشرق (أي مصر وبرقة يومذاك) وإنه نزل بأحد الموانيء القريبة من قورينا (لعلها طلميثة) ربما حوالي سنة 40 من ميلاد المسيح، وظل في هذه البلاد واحداً وعشرين عاماً حتى سنة 61إفرنجي، ثم غادرها إلى مصر، وأشرف عليها مدة سنتين أو ثلاث سنوات، ومن ثم عاد إلى برقة لينظم أمر المسيحية بها، فأنشأ أول كنيسة وجعل عليها أول أسقف، ذاك الذي سمي (لوقيوس القوريني) في (أعمال الرسل) وذكر مع (برنابا)، ولم تطل إقامته هذه المرة سوى بضعة شهور أو لعلها بضعة أسابيع، ثم قفل إلى مصر ليلقى مصرعه في فتنة بالإسكندرية يوم 25 (أبريل) سنة 63إفرنجي.

الواقع أن مدة الواحد والعشرين عاماً المذكورة عن إقامة القديس مرقص في الجبل الأخضر مدة ليست بالهينة خاصة في بواكير الدعوة المسيحية ومن أحد حواريي المسيح ذاته، وهي مدة لا شك كافية لإحداث تأثير كبير في أتباعه وتلاميذه، ولعل

هذا هو السبب في ذكر عدد لا بأس به من (المعلمين) والدعاة المنتمين إلى قورينا ــ وهو الاسم الذي عم الجبل الأخضر كله باسم المدينة الشهيرة، لكن مرقص لم يكن في قورينا (المدينة) نفسها فيما يبدو، إذ كانت تحت سيطرة الرومان ولم يكن من الممكن له أن يعيش فيها، ومن هنا يظهر أنه لجأ، هرباً من الاضطهاد، إلى أحراش الجبل الأخضر ومرتفعاته. وهناك توجد منطقة تقع ما بين طلميثة ودرنة تسمى (وادي مرقص) وهو وادٍ منحدر وعر تعلوه الأشجار والنباتات من الجانبين ويجري فيه جدول ماء.

وبعد مسافة من الصعود يأتي المرء إلى شبه ساحة منعزلة على مدرج من الجبل حيث توجد آثار كنيسة منقورة في الصخر يتدفق شلال ماء عذب بارد جداً بينها وبين بقايا غرفة كبيرة يقول بعض الناس إنها كانت بيت القديس مرقص، ويقول آخرون إنها كانت خاصة باستقبال المواليد وتعميدهم في ماء الشلال.

هذه المنطقة بالغة الهدوء، ولا يمكن الوصول إليها بسهولة، وهي محصنة تحصيناً طبيعياً، موقع مثالي للتعبد والتوحد والانعزال، أما أن يحيا فيها عدد كبير من الناس يكونون مجتمعاً فذلك ما أشك فيه، لضيق مساحة المكان وانعدام مصادر العيش من زراعة ورعي ونحوهما، دعك من الصناعة مهما كانت بساطتها.

ولعل هذا هو السر في أننا لم نسمع أن (مرقص) نجح في تكوين (مجتمع) مسيحي بقدر ما نجح في تكوين (جماعة) مسيحية أو (مجموعة) من الأتباع القليلي العدد تولوا مهمة التبشير من بعده، أما في مصر فيبدو أن نجاحه (الجماهيري) كان أوسع وأرحب، لاختلاف الظروف البيئية وعدد السكان.

تحليل اسم مرقص:

كانت الغاية ـ قبل أن يسرقنا الكلام ـ الحديث عن اسم (مرقص) ـ أو هو اسمه الثاني الذي عُمِّد به وبه عُرف ـ وتحليله، فلنعد إليه إذن.

إنه اسم مشهور متداول، يعرف في العربية بالسين (مرقس) وبالصاد (مرقص) وبالقاف في الحالتين، وهي كاف في الأصل تليها سين (CUS ...) ويمكننا أن نتعرف على الاسم في صور متعددة ـ مثلاً.

ماركوس (تذكر طاغية الفلبين. . المرحوم).

ماركس (تذكر كارل ماركس صاحب أشهر النظريات الشيوعية. المرحومة أيضاً).

ماركيز (تذكر الفائز بجائزة نوبل للآداب سنة 1982. . صاحب «مائة عام من العزلة» ولا عزلة القديس الليبي/ المصري!).

وكلها تنتهي بحرف السين الزائد، أما في صور أخرى فإننا نجدها بالحرف اللاتيني، وباختلاف البلدان:

Marc في الفرنسية، Marcone, Marco في الإيطالية (الأول اسم للرحالة ماركو بولو، والثاني اسم مكتشف الإذاعة اللاسلكية)، Mark في الإنكليزية.. الخ.

وكلها تعاد إلى اللاتينية (ماركوس) Marcus. فماذا يقول معجم اللاتينية الاشتقاقي عن هذا الاسم؟.

عن مارس وأريس:

المعجم المذكور يرجع اسم (مرقص) Marcus إلى اللاتينية (مارس) Mars وعنده أن هذا اسم معبود إيتالي عتيق يقابل إله الحرب الإغريقي المسمى (أريس) Ares غير أن ما لم يذكره المعجم هو أن السين في (أريس) مزيدة، وأصل الاسم (أري) بمعنى: قاتل، مقاتل.

ونحن نجد له مكافئاً في العربية الجنوبية (لغة اليمن القديمة/ السبئية) في صورة (ورو) بمعنى: قاتل ـ حسب معجم بيبلا. وفي لسان العرب لابن منظور نقرأ في مادة (أور) ما يفيد شدة الحر ولفح النار والدخان واللهب ـ وهي صفات إله الحرب عند اليونان.

«قال الكسائي: الأُوار مقلوب أصله الوُآر. وأرض أورة

ووَيْرة، مقلوب: شدة الأوار. والمستأور، الفزع». وفي مادة (وأر): وأر الرجل وأراً: فزَّعه وذَعَره. ووأر الرجل: لقاه على شر، الوائر: الفزع. الإرة: موقد النار. وهذه كلها خصائص إله الحرب الإغريقي (أري) اتضحت عروبية اسمه كما نزعم، وهو الذي قوبل بإله الحرب اللاتيني (مارس).

الذين يعرفون الفرنسية، وطبيعي أن يفعل الذين يتكلمونها لغة أولى أو مفروضة، يستعملون اسم هذا المعبود في الأسبوع مرة على الأقل حين يتحدثون عن يوم الإثنين فيقولون (ماردي) Mardi وأصلها في الفرنسية القديمة Marsdi عن اللاتينية Martis dies أي (يوم (الآله) مارس) حرفياً.

أما في بعض الأقطار العربية فيستعملون اسم إله الحرب هذا شهراً كاملاً على الأقل في السنة يطلق على الشهر الثالث منها (مارس) وتبدل السين تاءً في المغرب فتكون (مارت)، وإبدال السين تاء أمر لا غبار عليه، فإن ذلك في اللاتينية ذاتها في صور (مارتيوس) و(مارتنوس)، ومن هنا جاء اسم العلم في الإنكليزية (مارتن) وفي الإيطالية (مارتيني) ومنه سُمّيَ نوع من الشراب معروف نسبة إلى مبتدعه، ويقرر (معجم روبير) أن هذا الشراب (علامة مسجلة) أطلقته مؤسسة (مارتيني وروسّي) سنة 1930إفرنجي ومنه نوعان: أبيض وأحمر، يحتسى فاتحاً للشهية قبل تناول الطعام، ويخالف (معجم أكسفورد) هذا الرأي فيقول

إن (المارتيني) مزيج مركب، أو هو (كوكتيل) ـ ولاحظ أن المعنى الحرفي لكلمة (كوكتيل) هو (ذيل الديك) بألوانه الزاهية البهيجة مما يليق إطلاقه على ذاك الشراب المنعش اللذيذ!

في الفرنسية نجد اسم الشاعر المعروف (لامارتين) Lamartine صاحب الشعر القصصي على ألسنة الحيوانات وهو ما قلده أحمد شوقي فيما بعد في دنيا العرب، وقد كتبت دراسات حول هذا الشاعر الفرنسي وقيل إن أصله عربي، ينتمي إلى (ماردين) في شمال بلاد الشام، ودللوا على هذا بأنه زار دمشق ـ حنيناً إلى وطنه الأم فيما يبدو ـ وحكايات أخرى كثيرة. أما (المعجم الاشتقاقي لأسماء العائلات والألقاب في فرنسا) فيقرر أن اسم الشاعر يعود إلى الصيغة المؤنثة Martine أسبقت بأداة التعريف للمؤنث La وأدمجتا فكانت Lamartine وترجع التسمية إلى القديس (مارتن) المبشر بالمسيحية في بلاد الغال وبالذات في منطقة (تور) الفرنسية. فهل كان الشاعر مسمى باسم أمه كما نسب سليك بن السلكة إلى أمه؟ أم ترى حدث له ما حدث للشاعر الجاهلي أمية بن الصلت أو عنترة بن شداد العبسي (تأمل!) أو الأسماء المؤنثة لفحول الشعراء من مثل حنظلة المُرِّي وحتى الحطيئة؟

فلندع الأمر للمهتمين بلامارتين (المارديني!) ولنعرف أن اسم القديس الغالي (نسبة إلى بلاد الغال) معروف في تعبيرات

إنكليزية من مثل: قداس مارتن Martin Mass وصَيْف القديس مارتن St. Martin Summer. كما يُسَمى باسمه الخطّاف الذي يبني أعشاشه من الطين في جدر البيوت House-Martin والعجيب أن هذا النوع من الخطاطيف كان مقدساً عند قدماء المصريين كما أن له حرمة عند الليبيين حتى أيامنا هذه.

في الفرنسية لدينا تعبيرات من مثل L'ane Martin (حرفياً: الحمار مارتن) و Martin baton (حرفياً: عصا مارتن) وكذلك Martin chasseur (حرفياً: حذاء مارتن) و Martin-pecheur وهي تسمية للخطاف صائد الحشرات.. الخ.

إسم (مارتن) ـ ويأتي في صورة (مارزن) في بعض مقاطعات فرنسا ـ يرجع إلى (مارت) في مختلف اشتقاقاته، وهو ذاته (مارس) وهو إله الحرب سمي به الشهر الثالث ـ في الإنكليزية March وفي الإيطالية Marso، وفي المثل الإيطالي: Marso e matto أي: شهر مارس مجنون (قارن (ماتُّو) بالعربية (معتوه)!) لريحه الهوجاء وأعاصيره المدمرة، فهو موعد (الانقلاب) الربيعي، وفي الإنكليزية تؤدي الصفة منه martial معنى (عسكري) و court martial (محكمة عسكرية) وmartial law (قانون عسكري = أحكام عرفية، كما عُرفت).

... والمرّيخ:

غير أن اسم إله الحرب (الروماني) هذا أطلق على كوكب

شهير نعرفه نحن العرب باسم (المريخ). فهل لاحظ القارىء أن جذر (المريخ) هو (مرخ)؟ وهل لاحظ الإبدال في اللغات اللاتينية والجرمانية في الحرف الثالث، ما بين السين والتاء والكاف؟ فكيف لا يقبل أن يبدل خاء في العربية وهو صوت منعدم في تلك اللغات، فإذا جاء كان مخففاً؟

هذه واحدة، أما الثانية فإن معجم اللاتينية الاشتقاقي يرجع الاسم في صوره المختلفة إلى الجذر الثنائي (م ر) في أصله الأصيل: (م ر ← مَرْ ← مار)، ويقول إنه يضاعف إلى (مرمر)، والمضاعفة عادة للمبالغة في الصفة وتأكيدها تماماً كما هو الحال في المصرية القديمة وفي العربية كذلك.

وقد ذكرنا أن الشهر الثالث من السنة الشمسية المعتمدة الآن سمي باسم إله الحرب الروماني كما سمي الكوكب (الذي يوصف في المصادر العربية بأنه: الأحمر والناري) باسم (المريخ).

فلنرجع إلى معجم اللغة المصرية القديمة لنعرف هل وجد فيها هذا الاسم وبأية دلالة؟

م ر م ر: اسم إله (الحرب؟)، لاحظ المضاعفة.

م ر خ: قاتل، حارب.

م ر خ ي: حرب، قتال.

وقد يقول قائل إن المصرية القديمة أخذت من اليونانية واللاتينية (!) كما يذهب لويس عوض في كتابه (مقدمة في فقه اللغة العربية) مثلاً، ولكننا نلاحظ أن الجذر الأصلي في المصرية هو (م ر) وتسمية إله الحرب، أو الحرب ذاتها، منشأها معنى الشدة والقوة ثم الإجهاد والإعياء بعد الصراع العنيف، في الجذر الثنائي (م ر) في المصرية نجد على سبيل المثال لا الحصر:

م ر، م ر و، م ر ت: ربط، فتل (وهنا معنى الشدة)، قارن العربية: مرر ← مرار (حبل).

م ر: ألم، عذاب، حامض. قارن العربية: مرار، مرارة.

م ر و: صحراء قاحلة. العربية: مرت، مروراة.

م ر: الثور المقاتل، القوي. العربية: مرأ/ مرء = قوي.

حتى نصل إلى (م ر ـ و ر) وترجمتها الحرفية: الثور المقاتل/ القوي.. العظيم. وهو ما عرف عند اليونان في صيغة (منيفيس) Mnevis ومكافئة العربي: المرء الوري.

في المصرية كذلك نجد (م ر ي ن) بمعنى: الوجيه، الرفيع القدر، القوي. تقابل البابلية (مريانو).

فأين العربية من هذا؟

إنها في الجذر الثنائي (مر) وهو كذلك في جميع اللغات

العروبية القديمة من بابلية وكنعانية وسبئية وليبية وما تفرع عنها من لهجات، ومنه الثلاثي (مرأ) الذي منه (مرء): الرجل، القوي، القادر. ومنه اشتقت (المروءة) بمعنى الرجولة، و(المِرَّة) بمعنى القوة.

فإذا نظرنا في ثلاثيات الثنائي (مر) وجدنا في العربية ما يلي:

مرأ: المرء: الرجل القوي.

مرت: المرت: المفازة لا نبات فيها. المرمريت: الداهية.

مرث: مرد. مرس: ضرب.

مرج: سهم مريج: قلق، المارج: الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد.

مرجل: (رباعي «مرج»). الرجل: الإناء الذي يغلي فيه الماء.

مرخ: المريخ: سهم طويل، والرجل الأحمق.

مرد: المارد: العاتي، الخبيث، الشرير.

مرر: المر: ضد الحلو، والمِرَّة: الشدة. المُرَّان: شجر الرماح.

المستمر: الخصومة.

مرز: المَرْز: العيب والشين، والضرب باليد.

مرس: المِراس: شدة العلاج. المرس: الشديد المجرب للحروب، تمرس فلان بدينه: مارس الفتن وشادَّها، وتمرس بالشيء ضربه. وامترس الشخصان في الحرب، وامترست الألسن في الخصومة: تلاجَّت. وفحل مرَّاس: شديد المراس.

مرش: المرش: الخدش، الأمرش: الكثير الشر، مرش: آذى.

مرض: المرض: السقم، نقيض الصحة.

مرط: الأمرط: اللص، وأصله الذئب يتمرط من شعره وهو أخبث ما يكون.

مرغ: التمرغ: التقلب (كما في الحرب).

مرق: المُرْق: الذئاب الممعَّطة.

مرن: المُرَّان: السهام الصلبة، مرن به الأرض: ضربها به.

مرا: المرْو: حجارة تقدح فيها النار.

في هذه المواد بالطبع تفصيلات كثيرة اجتزأنا منها بما يناسب الغاية، وهي تؤدي في دلالاتها إلى صورة إله الحرب الروماني الذي يختم معجم اللاتينية الاشتقاقي ـ بعد تحليلات وتفريعات ومقارنات ـ بأن (اسمه لا يوجد له أصل. . يشتق منه

فـي الـلـغـات الـهـنـد ـ أوروبـيـة) Pas d’etymologie indo-europeenne (ص388)، ومعنى هذا ببساطة أنه ليس أصيلاً في اللغتين اليونانية واللاتينية، فهو إذن عروبي كما بيناه في لهجة عرب مصر الأقدمين أو في لسان عرب الجزيرة قدماء ومحدثين.

فلنرجع قليلاً إلى لغة أخرى كادت أن تكون نسياً منسياً بين اللغات العتيقة، لغة الاتروسكيين، أو الاترووريين، كما يسمون، وهم شعب كان يقطن جزءاً من شبه الجزيرة الإيطالية قبل مجيء اللاتين بقرون، وكانت عاصمتهم مدينة روما التي أنشأوها هم ولم يؤسسها الرومان (اللاتين) كما هو شائع.

منذ أكثرَ من مائة عام (وبالتحديد في سنة 1890إفرنجي) تحدث باحث يدعى (دانيال برنتون) عن المعبود مارس في مقالة له نشرتها الجمعية الفلسفية الأمريكية Daniel G. Brinton; On Etruscan and Libyan Names, Proceedings of American Philosophical Society, Vol xviii, 1890, PP. 39-53.

قال برنتون:

«إن الاسم الإيتالي القديم لهذا المعبود كان (مَرْمَرْ) وهو الذي يظهر في الاتروسكية في شكل Marmar-ce باعتباره اسم معبود، وقد سمي به أحد الشهور في التقويم الاتروسكي، وكان

هذا الاسم في صورة (مرمر) Marmar يتردد كثيراً في اللغة الليبية القديمة.

ولست بحاجة لاسترجاع اسم الزعيم الليبي Marmar ia وقبيلة (مرمريداي) Marmaridae.. الخ، كما أن هذا الاسم يظهر في نقوش (جبل تالة) كما يورده هاليفي Halevy; Essai, P.68، وهنا يبدو التطابق كاملاً» (ص45).

في هذه المقالة البالغة الأهمية والأثر بين برنتون في دراسته المقارنة بين أسماء الآلهة والأشخاص والأماكن عند الأتروسكيين، سكان إيطاليا قبل اللاتين، أنها تعود إلى اللغة الليبية القديمة مما يشير إلى أن الأتروسكيين أنفسهم كانوا ليبيي الأصل هاجروا من شمال أفريقيا وعمروا إيطاليا وتركوا آثارهم فيها لغة وديانة وحضارة مادية قبل أن يتغلب اللاتين عليها. المثير في الموضوع أن هذه الأسماء التي أوردها برنتون واضحة العروبية بشكل يدعو إلى إعادة النظر في كل (المسلمات التاريخية). وقد ترجم الكاتب هذه المقالة وعلق عليها وهي قيد النشر.

تتبع آخر:

عرفنا أن اسم (مرقس) عروبي الأصل وأن جذره (مر) أضيفت إليه اللاحقة اللاتينية Cus فصار (مركوس) وجاء في

العربية (مرقس) و (مرقص)، وعرفنا أن (مر) تضاعف إلى (مر مر)، وأن (القديس مرقس) الرسول ليبي النشأة والدعوة والسياحة وأنه كان يمضي إلى الإسكندرية شرقاً ويعود منها غرباً في منطقة بينها وبين قورينا في الجبل الأخضر، وهو أحد حواريي المسيح عليه السلام وكاتب أول إنجيل من (الأناجيل الأربعة) المعتمدة عند النصارى، والداعية المتعصب ضد الوثنية وأصنامها وأربابها وكل ما يمت إليها بصلة، فلماذا يا ترى يتخذ لقباً لمعبود روماني؟ أو لماذا يلقب باسم وثني بديلاً لاسمه الأول (يوحنا)؟.

هذا سؤال نراه وجيهاً يستحق أن يناقش برويَّة وعلى مهل، فالرجل قد يكون وُلد ونشأ في قورينا، حسب القرائن التي قدَّمناها. فإن لم يكن فهو وُلد في (موقع ما من الصحراء الغربية يقع الآن في ليبيا) حسب قول غالي شكري الذي سبق. ومن المستبعد أن يكون وُلد في واحة الكفرة أو الجغبوب اللتين (تقعان في ليبيا) ولا في سيوة التي تقع في مصر الآن، وهذه واحات صحراوية لم يكن من اليسير فيها معرفة اليونانية التي كتب بها (إنجيله)، ولا اللاتينية التي شرح معاني بعض ألفاظها. الأقرب أن يكون وُلد ونشأ في المنطقة الساحلية من (الصحراء الغربية) بالنسبة إلى مصر (الشرقية) بالنسبة إلى ليبيا، ثم تعلم في قورينا.

هذه المنطقة الساحلية الواقعة الآن ما بين السلوم ودرنة كانت منطقة مأهولة بالسكان منذ القدم، مليئة بالحركة البشرية، ولأهلها ذكر في أحداث تاريخ هذه المنطقة، وهي سميت منذ القديم في اللسان اللاتيني (مرمريكا) Marmarica وعرف أهلها منذ العصور اليونانية باسم (مرمريداي) Marmaridae.

ملاحظة مهمة:

وقبل الاسترسال في تحليل هاتين التسميتين تحليلاً فيلولوجياً تستوقفنا ملاحظة مهمة عن أصل قبيلة (المرمريداي)، فهي لم ترد عند هيرودوت في (تاريخه) وحديثه المفصل عن القبائل الليبية في عصره، وأول مرة ورد فيها ذكرها كانت في مؤلف (سكيلاكس) Scylax الذي كتب حوالي سنة 320ق.م(ف). ثم توالى ذكرها باعتبارها القوة المهيمنة على الشريط الساحلي ما بين الإسكندرية وقورينا، وباعتبار أبنائها مقاتلين أشداء حتى ليقول (يوسفوس) صاحب كتاب (الحروب اليهودية) أوائل القرن الأول الميلادي متحدثاً عن قوة الرومان، إنه لم يستطع قهرهم «القورينيون أعقاب الإسبرطيين، ولا المرمريداي ذلك الجنس الممتد على طول الأقاليم المجدبة، ولا السرتيون (نسبة إلى خليج سرت) الذين يلقي اسمهم الرعب في القلوب».

أما الشاعر (سيليوس إيتالكوس) صاحب ملحمة (البونيقة)

Punica الشهيرة التي خصّصها للحديث عن الصراع بين قرطاجة بقيادة (حنبعل) والرومان فقد جعل إحدى شخصيات (ملحمته) العذراء الليبية المحاربة في جيش حنبعل التي أسماها (أسبوتي) من قبيلة المرمريداي. يقول:

«من بين الليبيين ذوي الأردية الفضفاضة وأهل اللسانين جاءت أسبوتي بجسارة لتقاتل ضد روما مع جنود من مرمريكا» (انظر قصة أسبوتي كاملة في مؤلف الكاتب: بحثاً عن فرعون العربي). وقد فسر وصف المرمريداي بأنهم (أهل اللسانين) على أساس أنهم كانوا يتكلمون اللغتين المصرية والليبية، وليس هذا ضرورياً، إذ لعل المقصود كان اللهجتين المصرية والليبية، كما هو واقع الحال اليوم في سكان هذه المنطقة مما يظهر عند أهالي مرسى مطروح مثلاً بوضوح. غير أن أوريك بيتس .O Bates في كتابه (الليبيون الشرقيون The Eastern Libyans) ص54 و275، يشير إلى قضية في منتهى الأهمية عن أصل المرمريداي.

وهو ينقل عن مصدرين لاتينيين (قبل مجيء عرب الجزيرة بقرون طويلة من الزمان فلا يتهمان بالتحيز أو التعصب للعرب أو انتحال الأنساب) هما (أغرويتاس) Agroetas و(يوستاثيوس) Eustathius اللذين ينقلان بدورهما عن مصادر أقدم.

يقول بيتس (ص54) ما مؤداه أن المرمريداي حين ذكروا

أول مرة عند (سكيلاكس) كانوا يشغلون دواخل قورينا حتى خليج سرت الكبرى، ولا ريب في أنهم كانوا يحوون مجموعة قبائل كثيرة لعل من بينها قبيلة (الجلغماي) Giligamae التي ذكرها هيرودوت ولم يذكروا من بعده، ويعلق في الهامش بما نصه:

«ولعل المرمريداي المتأخرين شملوا بعض البدو (الساميين) من سيناء أو الجزيرة العربية، فإن أغرويتاس يذكر لقب (مرمريس) بن (عرب) Marmaris son of Arabs». ويقول (ص275):

«وهكذا فإن المرمريداي زعموا أن جنسهم انبثق عن مرمريس بن عرب».

إن كلمة (عرب) Arabs في صيغة الجمع بالإنكليزية، ولعلها أصلاً في اللاتينية Arabus فتقابل بالضبط الاسم الشهير (يعرب) وأن (يزعم) المرمريداي انتماءهم إليه، قبل مجيء العرب المسلمين وبشهادة كتاب لاتين لم يحتكوا بعرب الجزيرة الفاتحين، لذو دلالة بالغة يثبت بشكل قاطع ما قاله بعد أكثر من ألف عام ابن خلدون وابن خرداذبة وغيرهما ممن (اتهموا) بأنهم ينتحلون الأنساب لاختلاق وشيجة بين أهل الشمال الأفريقي الأوائل وأهل الجزيرة العربية. أما ذكر قبيلة (الجلغماي) عند

هيرودوت واعتبارها إحدى بطون (المرمريداي) فإنه يذكرنا باسم قبيلة (جلهمة) العربية القديمة التي كانت إحدى بطون العرب البائدة واندثر اسمها في الجزيرة ذاتها، أو قبيلة (جرهم) المعروفة جيداً من العرب العاربة، وحديث أسماء القبائل الليبية وصلتها بالمشرق حديث يطول، نكتفي منه هنا بهذه الإشارة التي تناسب المقام.

. . . عودة:

فلنعد بعد هذه «التعريجة» القصيرة إلى اسمي المنطقة (مرمريكا) والقبيلة (مرمريداي). أما الكاف المفتوحة (كا) في الأول فعلامة الصفة المؤنثة في اللاتينية والأصل هو (مرمر).

وأما (داي) في الثاني فهي لنسبة الجمع المذكر في اليونانية تقابل بالضبط العربية (ذوو) أي: أهل، أصحاب، أولو. . الخ.

التسمية اليونانية (مرمريداي) إذن تعني: «ذوو (ال) مرمر». أتت «ذوو» مقطعاً لاحقاً في اليونانية وهو في العربية سابق، طبقاً لنظام الإضافة في اللغتين.

ولا صلة للمرمر (الرخام) هنا بالموضوع، إلا صلة بعيدة جداً لا محل لنقاشها هنا، ولكن كلمة (مرمر) ليست إلا مضاعفة للجذر الثنائي (مر). فالأصل هو (ذوومر): [مر ـ ذوو = مرداي ـ بالمضاعفة: مرمريداي].

معنى (م ر):

فلماذا أسمي أهل هذه المنطقة بهذا الاسم؟ وما معنى (مر) هنا ليكونوا هم «ذويه» أي أهله المتصفين به أو أبناءه؟

السبب، فيما نرى، يكمن في أن أهل هذه المنطقة كانوا يعيشون في موقع ما بين (الصحراء) و(البحر) ـ لا فاصل بينهما فهم أهل برّ وأهل بحر في الوقت نفسه. ومن المدهش فعلاً أن في اللغة المصرية القديمة الجذر (مر) يعني (البحر) ومشتقاته كثيرة (قارن اللاتينية mare) كما يؤدي إلى (م رو) ومعناها: (الصحراء). بل إن في تلك اللغة كلمة (م ري ت) بياء النسبة وتاء التأنيث كالعربية، ومعناها: ضفة نهر، ساحل البحر، شاطىء ـ بل: الشاطىء الرملي، بالذات. (راجع معجم فوكنر، ص112). وفي (معجم بدج، ص308): (م ر ي ت): ساحل، مرفأ، ميناء (ولك أن تقارن القبطية emro والإنكليزية mooring, moor, marine لولا خشية أن يختلط الأمر عليك!). وعند الأستاذ (بدج) كذلك: (م ر ت) بتاء التأنيث = عبر، على الساحل الآخر، ما وراء (البحر).

فهل أطلق الإغريق الذين هبطوا هذه المنطقة حوالي سنة 630ق.م.(ف) هذه التسمية من لدنهم أم كانوا ينقلون اسماً عروبياً قديماً متوارثاً؟ فليكن هذا موضع نظر:

جاء الإغريق فهبطوا مكاناً اسمه (إيراسا) Irasa كما يذكر

هيرودوت في «الكتاب الليبي» Libikoi Logoi من (تاريخه) ويعلق أوريك بيتس بأن معنى الاسم في الليبية القديمة: المرفأ. وهذا ما يقابل العربية (رسا ـ مرسى). قيل: فأخذهم الليبيون ليلاً، كيلا يروا المنطقة ويعرفوا حالها، إلى «حيث عين ماء تنزل من السماء» (ما عرف بعدئذ باسم: نبع أبولُّو في قورينا، لا يزال حتى يومنا هذا متدفقاً). وهناك أنشأ الإغريق مدينة قورينا. وكان القادمون ذكوراً فتزوجوا من الليبيات الشقراوات كما يقول الشاعران (كاليما خوس) و(بندار) في قصائدهما. وكان يقودهم زعيم سمي باسم (باتوس) وهو لقب ليبي بمعنى «ملك» كما يقرر هيرودوت نفسه الذي يقول إن الإغريق نقلوا كلمات ليبية كثيرة غير هذه إلى لغتهم، كما نقلوا نمط رداء النسوة الليبي الذي كانت ترتديه الربة (أثينا) في تماثيلها، والعربات ذات الخيول الأربعة وغيرها. فالليبيون إذن لم يكونوا «برابرة» ولا همجا آنذاك، بل كان لديهم ما يقدمونه للشعوب الأخرى من تقنية ولغة وفنون. فماذا يمنع أن يكون الإغريق نقلوا تسمية أهل المنطقة محل النظر التي تعنينا: ذوومر = أهل الساحل الآخر، أو أهل الصحراء المتصلة بالبحر وحرفوها إلى (مرمريداي) وأصلها في لسانهم (مرداي)؟

والسؤال: أين العربية من هذا؟

والجواب نجده في مادة (مرت):

المرت: مفازة لا نبات فيها (صحراء قاحلة). ومكان مَرِتٌ: قفر.

المرت: الأرض التي لا كلأ بها، وهي أرض مَرْتٌ ومروت. وفي مادة (مرا):

المروراة (لاحظ المضاعفة هنا): المفازة لا شيء فيه، قفر مستوٍ، والجمع: المروري، والمروريات، والمراري.

وفي مادتي (مرا) و(مرر) معنى الماء وجريانه، والمور: الموج، في البحر.

وهكذا نجد في الجذر الثنائي (مر) لقاء بين الصحراء والبحر حال منطقة (مرمريكا).

ما دمنا رأينا الجذر الثنائي (مر) في المصرية القديمة والعربية يؤدي إلى ما عرضناه من دلالات ومعان واشتقاقات فلا ريب في أن الرومان حين جاءوا استعملوا الجذر ذاته للدلالة نفسها ولوصف المنطقة اتباعاً للاسم المتوارث، ولكن مع «تلتين» الكلمة، كما «أغرق» اليونانيون الصفة وطوعوها للسانهم.

. . . ومرقص:

إننا في العربية نضيف ياء النسبة وكذلك الأمر في المصرية القديمة، فتصبح صفة. نقول مثلاً: ليبي، مصري، عربي. أما

في اللاتينية فيضاف المقطع ca للصفة المؤنثة والمقطع cus للصفة المذكرة فيقال: ليبكوس، أيجيبتكوس، أرابكوس (للمذكر). وهذا، فيما نرى، ما حدث للقديس (مرقس) marcus الذي كان اسمه (يوحنا)، فلما صار من أتباع السيد المسيح وحوارييه كان لا بد أن يتخلص من أي شيء يربطه بماضيه ليجبَّ ما قبل تنصره وينسلخ من هذا الماضي. وهذه ظاهرة معروفة، إذ غيّر (شاول) اسمه إلى (بولس). فماذا يمكن أن يلقّب (يوحنا) الذي جاء من منطقة (مرمريكا) ـ أو بأكثر دقة (مريكا) ـ إلا بنسبته إلى البلاد التي جاء منها؟

ولعل هذا ما كان: لُقِّب «يوحنا» بـ«مريكوس» أي القادم من (مريكا) أو (مرمريكا) ـ وسرعان ما تحولت (مريكوس) إلى (مركوس) ثم (ماركوس) في بعض اللغات الحديثة وتنويعاتها: مارك، مركوني، ماركو... الخ: ونسبت التسمية إلى إله الحرب (مارس) عند الرومان إما للتشابه بين النسبتين، أو الجهل بمنشأ الاسم، النسبة، الصفة، أساساً، أو تعمداً من الكتاب الوثنيين الرومان لإلحاق القديس والحواري المؤمن بأحد معبوداتهم الكبرى، وتبعهم في ذلك من جاء بعدهم.. حتى يومنا هذا.

أتبغى قرينة أخرى تسند ما ذهبنا إليه؟

إنها تكمن في اسم مدينة تقع في المغرب الأقصى، عُرف

بها هذا المغرب يوماً قبل أنه يصير «المملكة المغربية» أو مجرد «المغرب». . أعني (مراكش) وهي ليست سوى تعريب أو تحريف للاتينية muracus أو mooracus نسبة إلى (المور).

لماذا (المور) وما معناها؟

كانت هذه الكتلة من الوطن العربي منذ الأزل كتلة واحدة في الشمال الأفريقي. وكما أطلقت صفة (عرب) على بعض سكان الجزيرة كلها (أطلقها الأكاديون، كما كان السبئيون يسمون إخوانهم الشماليين «عربن») عرف اليونان أهل الشمال الصحراء الليبية، من مرسى مطروح حتى درنة، أولاً باسم الـ «مور» (مرمريداي) صفةً عامة لأنهم كانوا أول من عرفوا من «الليبيين» فلما استقر بهم المقام في قورينا وما حولها وتعرفوا على بقية السكان عرفوهم بأسماء قبائلهم المتعددة تماماً كما كانت تعرف قبائل العرب بأسمائها. وهي كانت قبائل تنتقل من مكان إلى آخر في مختلف العصور إذ نجد مؤرخاً أو جغرافياً يذكر اسم قبيلة في عصره ويحدد موقعها في مكان بعينه ثم نجدها مذكورة عند من يليه في مكان آخر يقرب أو يبعد عن المكان السابق، شرقاً أو غرباً شمالاً أو جنوباً. لكن اسماً ما كان يطلق على منطقة بعينها محددة لا يلبث أن يعم الساحل الشمالي الأفريقي بأكمله.

بمجيء العصر الروماني كانت صفة (المور) قد بدأت تسري

لتشمل سكان شمال أفريقيا، عدا مصر، وتستعمل في وصفهم جملة حتى سُمي المغرب الأقصى مثلاً عند اللاتين باسم Mauritania (موريتانيا) أي: وطن المور. وقد تقلصت التسمية الآن لتقتصر على ما كان يعرف باسم «شنقيط».

وحين جاء الفتح الإسلامي كان الجميع يسمون في المصادر اللاتينية (المور) mauri رغم أنَّ في الجمع الزاحف عَرَباً من أهل الجزيرة وبلاد الشام والعراق ومصر. وفي أثناء الحروب الصليبية وباتصالهم المباشر بعرب المشرق قسّم الصليبيون العرب المسلمين إلى قسمين: «المور» (في المغرب) و «السراسين» Saraceens (في المشرق).

والكلمة الثانية كانت تنطق «سراكين» وهي ليست سوى العربية (شرقيين) أي: أهل المشرق أو المشارقة، في مقابل: أهل المغرب، أو المغاربة (المور).

منحى آخر قريب:

قد يكون معنى (المور) عند الرومان مأخوذاً عن أهل الصحراء ـ كما بيَّنا من قبل. ولكن لا يستبعد أن للون صلة بالأمر، ولعله لون بشرة القبائل الليبية القاطنة هناك، وهم أخلاف (التحنو) ذوي اللون الأسمر تشوبه حمرة لامعة كما تصفهم التسجيلات المصرية.

في اللاتينية كلمة moru (s) ومنها الفرنسية mure وتعني ثمرة الفرصاد (التوت).

ومعروف لونها الأحمر مع دكنة أو سواد قليل ولمعان، وتصنع منها خمر تسمى في اللاتينية moras، ولست أدري إن كانت بين هذه التسمية «موراس» وبين الخمرة السودانية (مريسة) صلة لغوية لونيَّة أم أن الثانية جاءت تسميتها من مادة (مرس) العربية. واللاتينية moras منقولة عن اليونانية moron ويقول المعجم الاشتقاقي إنها كلمة غير يونانية الأصل مأخوذة عن إحدى لغات البحر المتوسط. فماذا تكون هذه اللغة؟

في المصرية القديمة (معجم بدج ـ ص مر 314) نجد: (م ر): شجرة التوت.

وفي الكنعانية (نقوش رأس شمرا):

(م ر ت): الخمرة الحلوة.

وفي السريانية:

(مريتا) marita: عصير العنب، نبيذ. (فريحة، ملاحم. . . ص668).

وهذه الثلاث هي «لغات بحر متوسطية» (لنقل: عروبية) أخذت عنها اليونانية ثم اللاتينية ثم الفرنسية. . الخ. . الخ.

والعربية؟

هناك «مرر»، والمرمار: الرمان الكثير الماء الذي لا شحم له، وأشبه شيء بالفرصاد (التُّوت) من حيث اللون الرمان كما نعلم فهذا من ذاك.

المثير أن نجد في الإنكليزية كلمة meroon عن الفرنسية merron والإيطالية marrone بمعنى «ثمرة الكستناء»، ولونها أحمر مسودّ أو أسود محمرّ ويقول (معجم روبير) إن التسمية من جذر روماني عتيق هو ـ mar بمعنى: حصاة لامعة، وفي (معجم أكسفورد) moor: نوع من الصوان، من الجرمانية العليا mour و mor. وكل هذا يقابله في العربية (مرو) وهو حجر لامع أبيض. ولعل الأصل في الجميع فكرة اللمعان، وخص اللون الأحمر الداكن في اليونانية واللاتينية وتحدد بالحجر الأبيض في العربية، ويمكننا هنا أن نقارن العربية (مرمر) مضاعف (مر) أي الرخام، وهو حجر لامع ذو ألوان مختلفة ومختلطة... وكلها (مرمر) بما فيها اللون «الخمري» نسبة إلى الخمر.

مسألة اللون الخمري هذه تقودنا إلى بعيد جداً.

فعندما «اكتشف» الأوروبيون جزر (البولونيز) في المحيط الهادىء لم يجدوها خلوا من السكان بل وجدوا فيها قوماً خمريي اللون يشبه لون بشرتهم ما حدثتنا عنه التسجيلات المصرية الهيروغليفية عن (التحنو) الليبيين في شمال الصحراء

الغربية/ الشرقية، فأطلقوا عليهم اسم (ماوري) mauri وسرت التسمية حتى الآن.

من هذا الجذر العروبي الأصيل (مر) نجد في اللاتينية maurella (صيغة تصغير): عنب الثعلب، في الإنكليزية morel وفي الفرنسية morelle: أحمر مسودّ غامق.

morus: فرصاد (توت).

murex: ضرب من القواقع تخرج منه مادة أرجوانية.

يؤكد المعجم الاشتقاقي أنها ليست لاتينية وأنها من إحدى لغات البحر المتوسط. عربناها «مُرَّيق»، وهي المادة التي كان يستعملها الكنعانيون في صباغة الثياب باللون الأرجواني، الأحمر.

murra: نوع من الطين يستعمل في طلاء الفخار وتلميعه (يقابل «العنَّابي» عند الليبيين اليوم ولاحظ لون العُنَّاب الأحمر الداكن).

وهذه كلها ذات صلة باللون الخمري (الحمراوي في لهجتنا). أو، كما رجعت إلينا أو هي أصلاً عندنا: (المور) = اللون ما بين الأحمر والأسمر والأرجواني، اللامع (لون التحنو).

على أن أطرف ما حدث انتقال هذا الجذر العروبي ليصبح اسماً مشهوراً لدى الأوروبيين:

morris في بريطانيا، maurice في فرنسا (وإليه تنتسب جزر «الموريشيوس» شرقي القارة الأفريقية، دولة لها شنّة ورنّة وعضو في الأمم المتحدة) و mario في الإيطالية. ليس هذا فحسب بل إن ثمة رقصة معروفة تسمى في الإنكليزية -morris dance كانت في الإنكليزية القديمة morys وهي ذات صلة بالصفة moorish (مورية، مراكشية، مغربية) تقابلها في إسبانيا رقصة، مع غناء وعزف خاص، تدعي (موريسكو) morisco.

فماذا لو انتقلنا إلى المشرق نولّي وجهنا شطره بعد أن وليناه نحو المغرب؟

في لبنان ينتشر اسم (مارون). ولنذكر هنا الأديب الكبير مارون عبود صاحب القلم الرائع والنقد اللاذع والروح العربية، حتى أنه كان ينادى (أبا محمد) إذ أسمى ابنه محمداً، وهو النصراني العقيدة، إيماناً منه بأن محمداً النبي (ص) نبي عربي أولاً وأخيراً وإن أرسل للناس كافة.

بيد أن أعرف (مارون) هو اسم القديس، البطريك، أحد رؤساء الكنيسة السريانية في بلاد الشام، ويتبع مذهبه (المارونيون) في لبنان خاصة ومنهم ـ في العادة ـ رئيس

الجمهورية اللبنانية، ولا داعٍ لمزيد من التفاصيل لاشتهار الأمر. ويقول (معجم روبير) وكذلك (المعجم الاشتقاقي في أسماء الأسر والألقاب في فرنسا) إن هذا الاسم maroun و maroune غامض الأصل. وقد بان أصله العروبي كما سبق.

في عالم اللغة ودنيا الكلمات، تتداعى الألفاظ والأفكار تداعياً عجيباً. فقد يبدأ الأمر من مجرد كلمة، أياً كانت، تجرّ أخرى فأخرى فثالثة.. فعاشرة.. إلى ما لا نهاية. لكنها كلها ـ في الحق ـ مرتبط بعضها ببعض، وقد يؤدي تداعي الألفاظ ومعانيها إلى معرفة أسرار كانت خافية، إلى جانب ما في الأمر من متعة التأمل والتحقيق. وقد بدأنا باسم البابا «شنودة» وانتهينا إلى ما رأيت. فلنكتف بما تقدم ولنقف عند هذا الحد.

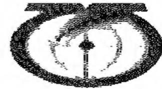


المحتويـات

الفلسفة والسلطة

ومقالات أخرى

في عالم اللّغة ودنيا الكلمات، تتداعى الألفاظ والأفكار تداعياً عجيباً. فقد يبدأ الأمر من مجرد كلمة، أياً كانت، تجرّ أخرى فأخرى فثالثة .. فعاشرة .. إلى ما لا نهاية. لكنها كلها (في الحق) مرتبط بعضها ببعض، وقد يؤدي تداعي الألفاظ ومعانيها إلى معرفة أسرار كانت خافية، إلى جانب ما في الأمر من متعة التأمل والتحقيق.



الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان

AD-DAR AL-JAMAHIRIYA

ISBN 9959 0-0085-0



9 789959 000859